

الکبالی

مع طه حسین



A.S.

مع طه حسين

الإعلانات يتفق بشأنها مع

شركة إعلانات الشرق الأوسط

٣٣ شارع عبد الخالق ثروت تليفون ٤٧١١٧ القاهرة

سامي الكيال

892.78
Ha 3924 X 18A
1952
CJ

معظم حسين

١١٢

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

لقاهر

اقرأ ١١٢ - مايو سنة ١٩٥٢



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

الإهداء

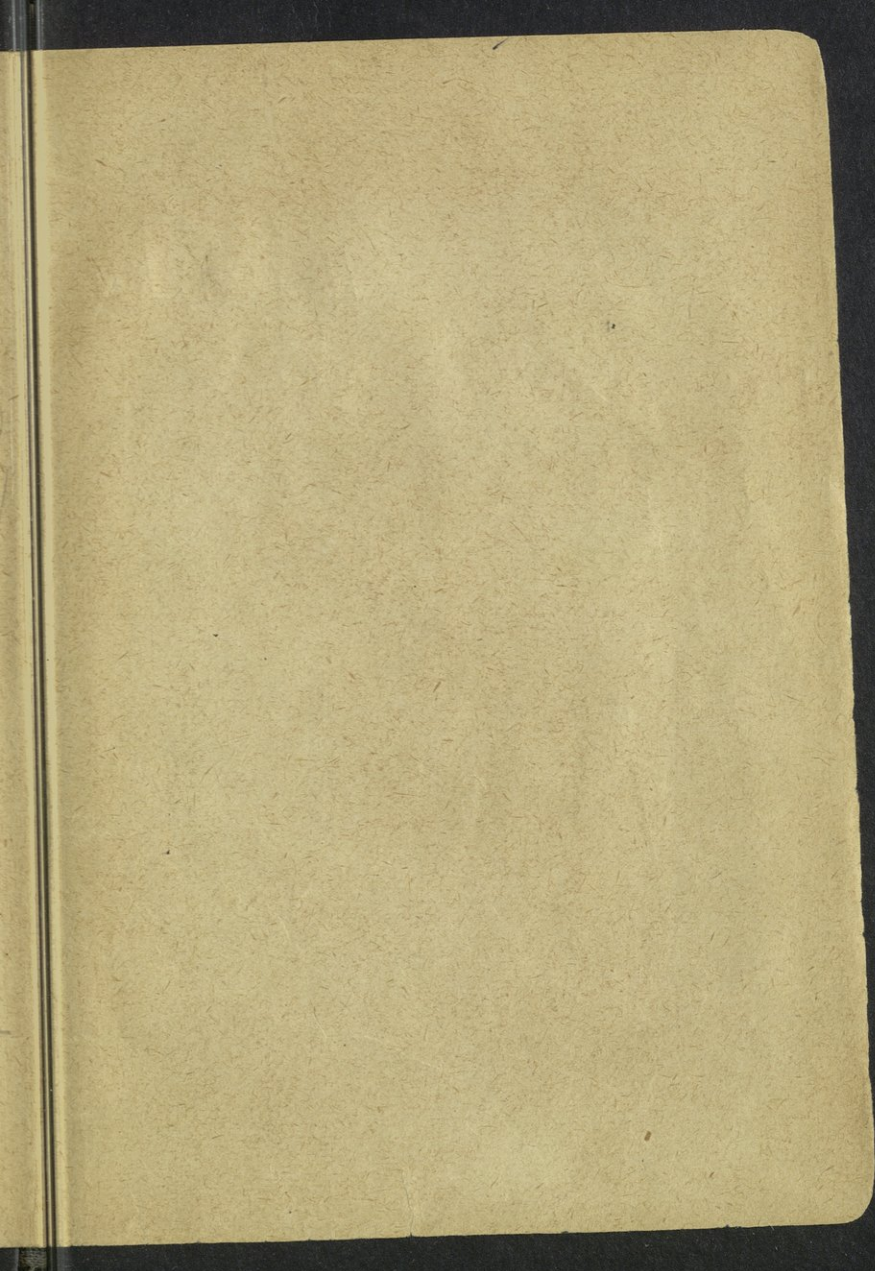
إلى تلك الزوجة الكريمة ...

إلى السيدة التي أحاطت زوجها بعطف نادر المثال — عطف
الأم الرعوم على فلذة كبدها الوحيد . . .

إلى المرأة المثالية التي كانت له نوراً بعد ظلمة ، وأنساً
بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس . . .

إلى مدام طه حسين

أهدى هذه الصفحات .



عميد الأدب العربي ، المفكر الحر ، صاحب المدرسة الحديثة التي وجهت الدراسات الأدبية وجهة جديدة نقلتها من عصر الميوعة والتزمّت والانحطاط إلى عصر القوة والحرية والانطلاق ، المؤلف ، الناقد ، الأديب ، القاص الذي رشحته الهيئات الأدبية في الغرب لجائزة « نوبل » معرّى القرن العشرين . ومفخرة مصر والعرب ...

الدكتور طه حسين

إن الحديث عن هذا العبقرى الفذ يحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل . فهو دنيا قائمة بذاتها ، وحياته نفسها قصة من قصص البطولة ، بطولية الفكر اليقظ وعبقرية الذهن المنتج .

فتى من أرياف مصر ، لم يتميز عن لداته وأقرانه إلا بحدة الذهن وقوة الملاحظة ... ما كادت الأفدار تصل بينه وبين دنيا المعرفة حتى سار في طريقه المتعب الشاق يقفز قفزاً ... ويترك زملاءه ورائه وهم في حيرة وذهول من سرعة سيره وقوة

قفزه .. وسرعان ما ترك القرية إلى مصر .. ومن مصر إلى باريس ...
 أى من الأزهر إلى السربون ...
 ماذا ؟

قروى من ريف مصر . . . وأزهري معمم من أقحاح
 الصعيد يصبح ، مع عاهته التي أفقدته بصره وهو طفل ،
 يصبح من طلاب السوربون في جامعة باريس .. نعم ... هكذا
 كان . ولم يكد يتم دراسته الجامعية في باريس حتى اختير
 مدرساً في « الجامعة المصرية » بعد أن كتب كتابيه الخالدين :
 « ذكرى أبي العلاء » و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ...
 والأول بالعربية ، والثاني بالفرنسية . . ومن التدريس في الجامعة
 إلى عمادة كلية الآداب ، مع الكتابة المستمرة في الصحف
 والمجلات التي جرت وراءها خصومات أدبية عنيفة وجهت الفكر
 العربي توجيهاً حراً ، ووجهت الأدب العربي توجيهاً
 صحيحاً ، إلى هذه المؤتمرات العالمية التي حضرها فكان فيها موضع
 إعجاب وتقدير أكابر المفكرين والمستشرقين بصورة خاصة ،
 إلى هذه المؤلفات في شتى ميادين الفكر والحياة والأدب ، إلى
 عشرات المآثر الكبرى التي دخل غمارها بقوة وعنف وما زال
 حتى خرج منها يعلو جبينه الغار .. . وأخيراً إلى وزارة المعارف
 يرسم الخطط القويمة لمحو الأمية والنهوض بمصر لتبلغ أسمى

ما تحلم به أمة تريد التحرر والسير في مواكب الحضارة .
وفي كل فترة من هذه الفترات تاريخ مليء بالحياة والمجد
والعظمة . ولا أريد هنا أن أكتب قصته ، وهي سفر طويل
تضييق به هذه الصفحات المحدودة من هذه السلسلة الكريمة ، بل
أريد أن ألمح إلى هذه المراحل من حياته الفكرية ... أعتمد فيها
على كتبه وبعض ما كتبه ، وهي تصور ملامح من حياته
الفكرية ، هذه الحياة التي تزداد نوراً وإشراقاً ، وفيضاً وسناء كلما
تقدمت به الأيام .

ترجع أصلى بطة حسين إلى ما يقرب من ثلاثين سنة ...
كنت في بدء حياتي الأدبية أقرأ كل ما يقع تحت يدي ،
وقد انجذبت منذ نشأتي الأولى إلى أدباء مصر . . قرأت شوقي
وحافظ والمنفلوطي وقاسم أمين وفريد وجدي وفتحى زغلول باشا ...
وكان لشعر حافظ إبراهيم - شعره الذى يصور فيه أمراضنا
الاجتماعية - كان لهذا الشعر الاجتماعى أثره القوى فى نفسى ،
وقد وجهنى إلى نظم الشعر ، فنظمت المقطوعات الصغيرة ،
والقصائد ذات العشرين والثلاثين بيتاً . وكنت أزهو بشعرى
وهو لون من السخف . وشاء الله أن ينقذ الشعر منى ، وإلا
لكنت اليوم فى عداد الكثيرين من الشعراء النظامين الذى يشكو
الأدب العربى غلظتهم وسخفهم وهراءهم !
ومن حافظ إبراهيم الذى ظلت زمناً أترنم بشعره ، وأفضله
حتى على شوقي - إلى طه حسين ...

وقع بيدى كتابه « ذكرى أبى العلاء » وأنا مريض فقرأت
باحثاً ينفذ إلى صميم أبى العلاء ... فما كدت أفرغ من تلاوة
كتابته حتى أحبت الرجل ، وأخذت أتابعه فى جميع ما كتبه .

ورجعت إلى مجلدات «المقتبس» التي كان يصدرها البهائية
محمد كرد علي فعثرت على مقالات للشيخ طه الأزهرى ، أى
طه حسين ، فقرأتها . . . ولم تكن ذات بال . على أن كتابه
« ذكرى أبى العلاء » قد فتح أمامى نوافذ تطل على
الحياة العقلية عند العرب . كان النهج جديداً ، فالدراسات
الأدبية كانت بين يدي أعلام يرددون ما سبقهم إلى ترديده
شيوخ الأدب فى العصرين الأموى والعباسى والذين كانوا نسخاً
مكررة لما فى تلك الكتب من نصوص ، فلا تحليل لشعر
الشاعر ، ولا درس لحياته ، ولا للعوامل الاقتصادية
والاجتماعية والنفسية التى كونه . . كان البحث يدور عن تاريخ
ولادته ، ونبذة من سيرته كما أثبتتها القدماء ، ونماذج من
نثره وشعره ، وكفى الله شيوخنا الأعلام مشقة الدرس والبحث !
لقد انتهيت بعد أن قرأت هذا الكتاب إلى أن الدكتور
طه هو أول من وضع أسس البحث العلمى فى الدراسات
الأدبية . . . قد يقول قائل إن المستشرقين قد سبقوه إلى هذا
النهج . . . ولا يقول الرجل إنه من المبدعين له ؛ بل حسبه أن كان
أول وأجراً أديب عربى معاصر حطم تلك القيود القديمة فى
البحث واتجه النهج الجديد الذى تسلكه الأمم الحية فى دراسة
آدابها . . .

وقد أصبح ، بهذا النهج الذى اصطنعه ، صاحب مدرسة
جديدة فى الأدب ، سار فى إثره الكثيرون من أعلام الكتاب .
كما نهج نهجه تلامذته الجامعيون ، وما أكثرهم ، وهم
اليوم رمز النهضة الأدبية المعاصرة لا فى مصر بل فى الشرق
العربى كله ، وفى أجزاء كثيرة من المغرب العربى ... حتى
فى المهجر الأمريكى ...

١٩١٤
٥٠
١٩١٩

بعد هذه التوطئة أقف وقفات قصيرة مع بعض كتبه أتبين بعض صورها وملامحها وأثرها في نفوس النشء وما أحدثته من تيارات في أدبنا وفي حياتنا العقلية .

لقد قلت إن أول كتاب قرأته لطفه حسين هو كتابه « ذكرى أبي العلاء » ، وهو كتاب عرض عرضاً شاملاً حياة الفيلسوف أبي العلاء وشعره ونثره وكتبه وعقيدته وفلسفته وبيئته والحياة السياسية والفكرية في عصره . . . ومع أنه ، قد مرّ على صدور هذا الكتاب أكثر من ثلاثين سنة ، فلا يزال ، بعد أن أضاف إليه بعض الفصول ، من المراجع الأدبية الهامة في فهم الكثير من حياة أبي العلاء وعصره وفلسفته .

كتب طه حسين هذا الكتاب وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد تقدم به إلى « الجامعة المصرية » ليعجز امتحان عالميتها ، وكان ذلك سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف . . أى قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، وقد نال شهادة الدكتوراه بتفوق . . وكان ذلك بدء ذبوع هذا الشاب . .

وقد تلقى الناس هذا الكتاب بكثير من الاهتمام .. لأنه

لون جديد من الدراسة الأدبية .. وكانت المفاهيم آنئذ لا تهضم
هذا اللون من البحوث الجديدة .. فما كان من أنصاف
الأدباء والمترجمين وأصحاب العقول المتحجرة إلا أن هاجموه بعنف ،
وأخذوا يخبرون مقالات السب والشتم .. وإلى هذا أشار في
مقدمة الطبعة الثانية للكتاب :

« .. ولقد كنت أودّ لو وجدت فيما كتبوا شيئاً يستحق
أن يسطر أو يناقش .. ولكنني آسف الأسف كله . لأنني
لم أجد فيما كتبه إلا شتماً وسباً ، وإلاّ طرقاً في الفهم معوجة .
ومناهج في التفكير عتيقة . . » — هذه الطرق المعوجة
وهذه المناهج العتيقة هي التي حاول طه حسين أن يهدمها .
وقد حمل معوله وأخذ يهدم هذه الأسس ، وما زال إلى أن
وفق إلى تغيير المناهج والقضاء على الطرق المعوجة قضاء مبرماً .

* * *

أظهر ما في كتاب طه حسين « ذكرى أبي العلاء » ،
فهمه لفلسفة أبي العلاء وردّها إلى مصادرها وتصويره بيئة
أبي العلاء وحياته تصويراً رائعاً . . ثم هذه الألوان التي
أضفاها على الدراسة الأدبية بهذا المنهج الجديد الذي أصبح
سنة للباحثين من بعده .
ولست أريد في هذه السطور أن ألخص ما كتبه طه

حسين عن نده وزميله أبي العلاء ، فموضوعنا لا يتناول هذه الناحية . . ولكن ظهور هذا الكتاب ، وظفر صاحبه بدرجة العالمية ، وهي أول شهادة تمنحها الجامعة لأول تلامذتها ، ودرسه حياة أبي العلاء دراسة جديدة ، وما أثاره صدور الكتاب من نقد وتجريح هو الذي حفزني أن أشير إلى بعض الملابسات التي رافقت صدوره .

فقد كثر التهجم على طه حسين حتى أرحف بعضهم بقوله : « . . إن طه حسين جنى على المسلمين فأخرج من بينهم رجلا من خلاصتهم . . » وقال بعضهم الآخر : « إنه جنى على أبي العلاء فأخرجه من دين الإسلام ! » .

بهذه العقلية المتحجرة قوبل كتابه ، وهكذا هوجمت طريقته في البحث ، وفاتهم ، سآحهم الله ، أن طه حسين لا يملك ، كما قال أكثر من مرة ، أن يدخل في الإسلام أو يخرج منه أحداً ، وإن كل ما عمله هو تصويره الدقيق لأبي العلاء وحياته وأدبه وعصره وفلسفته وعقيدته . أى أن مهمته اقتصرت على إبراز أبي العلاء بشخصيته الواضحة وتفكيره الصحيح لا بتلك الأوشاب والتخرصات التي علقت بحياته على مر العصور

٤

لم يكن طه حسين هذا الإنسان الذي يغريه المجد الرخيص
 فيقف عنده مباحياً مزهواً . . ولا هو ممن يستمرئون الكسل
 على حياة الجد والعمل . . لا . . لم يكتف ، وهو في فجر
 شبابه ، بهذا المجد ، فقد كانت نفسه تنزع إلى ما هو أسمى ،
 إلى أن يكون نفسه تكويناً علمياً فذاً .

وماذا بعد هذه المرحلة ؟

هل يظل في مصر يستمع إلى أقوال الجهلة المتخربين ؟
 ولا سيما بعد أن ذاق حلاوة النهج العلمي الذي رسمه له
 أساتذته الجامعيون من فحول المستشرقين ؟
 لا . . إذن فليول وجهه شطر الغرب . . وليرسم لنفسه
 خطة تغاير ما ألفه من قبل .

١ لقد ترك الناس في مصر يتخبطون في شأنه وشأن كتابه . .
 وسافر إلى باريس يرشف من مواردها أصفى المناهل العذبة . .
 لقد كان طه حسين طالباً بالجامعة المصرية منذ تأسيسها ،
 وكان أول من ظفر بشهادتها العلمية حتى عد ابنها البكر .
 وذهب في بعثة إلى فرنسا ليتمم دراسته . وقضى

عامين تلميذاً في السربون وفي الكوليج دي فرانس .
ولا بأس أن نلمع إلى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ
حياته ...

من الأزهر إلى السوربون

من الحياة الشرقية بتقاليدها وقيودها إلى الحياة التي
يحياها أبناء الغرب بحريتها وانطلاقها .

فقد كان طه حسين ، وهو في الأزهر ، مثال الطالب
الذكي ، الدعوب ، المجتهد ، الذي استطاع أن يتفوق على
زملائه ، وأن يلفت إليه نظر أساتذته الذين أعجبوا به
وضاق بعضهم من كثرة إحراجهم !

وفي حديث له عن المدة التي قضاها في الأزهر قال :
« إن المدة التي قضيتها في الأزهر كانت فترة انتقال ،
فكان محمد عبده يفسر القرآن على طرق حديثة ، والشيخ
المرصفي يعلمنا الأدب ، وكلاهما يذمّ الطرق الأزهرية . وكان
قاسم أمين يقول بحرية المرأة ، وفتحى زغلول يترجم لنا
كتباً قيمة ، و « الجريدة » تنادى بمعايير جديدة في السياسة
والاجتماع ، فكنا في اضطراب ذهني لا نستقر ، وشعرنا نحن
تلاميذ الشيخ المرصفي أن طرق الأزهر عتيقة ، فكنا نتكلم
ونتناقش عن الإصلاح الذي كان يقول به الشيخ محمد عبده

وقد حضرت له محاضرتين ... وحدث أنه بينما كنا نقرأ
 "الكامل" للمبرد وردت هذه العبارة : « وما كفر الفقهاء
 به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره : » إنما
 يطوفون برمة وأعواد ، فقلت أنا إنه لم يكفر وإن كان قد
 أساء الأدب . وبلغ قولي هذا شيخ الجامع الأزهر ، وسمعت
 أنه سيطردي فذهبت إلى "الجريدة" أريد كتابة مقال عن
 هذا الموضوع . وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفى السيد
 فرفض المقال ، ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعي أنا وسائر
 من غضب عليهم إلى الأزهر ... وتبين بعد ذلك أن طردنا
 لم يتقرر . ولكن من ذلك الوقت شعرت أن الأزهر لم
 يعد يشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت
 بالجامعة المصرية .

وإذ علم أن مدرسى الجامعة من الشرقيين والغربيين ،
 وأن إحدى اللغات الأجنبية ستكون أداة لتفهم المحاضرات
 والدروس التى ستلقى على الطلاب ، اختار الفرنسية يتعلم
 مبادئها . وكان فى حى الأزهر مدرسة ليلية تدرس الفرنسية
 وتتقاضى ، على ما قيل ، خمسة قروش فى الشهر من كل
 طالب فانتسب إليها واستطاع ، خلال خمسة شهور ، أن
 يلم بالفرنسية وأن تكون عوناً له على تفهم محاضرات الجامعة

التي يلقيها الأساتذة الأجانب بالفرنسية .
 وشعر التلميذ طه حسين بنشوة جديدة وهو يتلقى دروسه
 على أساتذة غربيين ومستشرقين اعتمدوا في تلقين تلامذتهم
 مناهج البحث الجديد . . . وهي مناهج تختلف كل الاختلاف
 عن مناهج الأزهر .

وقد حبيت إليه الدروس الجامعية الاستزادة وظل في
 الجامعة يروى ظمأه العلمي ، ويجوز الفحص بتفوق سنة
 فسة ، حتى عام ١٩١٤ حيث تقدم برسالته الجامعية لنيل
 شهادة الدكتوراه كما ألعنا ، وهي أول شهادة تمنح لطالب
 مصري يتقدم لنيلها . . .
 ومن هو هذا الطالب ؟

شيخ أزهري ضرير يكتب رسالته عن شاعر فيلسوف
ضرير . عن صنوه في الذكاء والمعرفة . عن أنى العلاء !
 لقد اهتمت الأوساط العلمية والأدبية بهذا الحادث
 أكبر اهتمام . . .

وقد يكون من الأمانة العلمية ، ووفاء لتاريخ هذا
 الرجل ، أن نثبت فيما يلي نص المحضر الذي وضعته اللجنة
 الفاحصة :

» . . في يوم الثلاثاء الخامس من مايو سنة ١٩١٤ ،

في الساعة الخامسة مساء ، اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالمية ، المؤلفة من الأستاذ محمد الخضرى رئيساً ، والأستاذين محمد المهدي ، ومحمود فهمي ، المدرسين بالجامعة. والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المندوبين من نظارة المعارف أعضاء لامتحان الشيخ طه حسين ، الطالب بالجامعة المصرية ، وكان اجتماعها بهيئة علنية .

ناقشت الطالب في الرسالة التي قدمها في تاريخ أبي العلاء المعري ، ثم في العلمين اللذين اختارهما ، وهما ” الجغرافية عند العرب “ و ” الروح الدينية للخوارج “ واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق . وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات ، فقررت أنه يستحق :

(أ) درجته جيد جداً في الرسالة .

(ب) درجته فائق في الجغرافية عند العرب .

(ج) درجته فائق في الروح الديني للخوارج « .

وفي منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور الذي احتشد في قاعة الامتحان . .

فارتاح مجلس الجامعة لهذه النتيجة ، وقرر تبليغها لسمو الجنب العالى الخديوى . والتماس تقديم الشيخ طه

حسين لأعتابه الكريمة ، بإشارة برقية هذا نصها :

« حضرة ياور جناب خديوى المنتزه

الجامعة المصرية المشمولة برعاية الحضرة الفخيمة الخديوية
عقدت البارحة لأول مرة امتحاناً علمياً ، تقدم إليه الطالب
الشيخ طه حسين الكفيف البصر لنوال الدكتوراه فى الآداب .
وقد فاز فى هذا الامتحان فوزاً باهراً ، ونال فيه أعلى الدرجات ،
وهذه أول ثمرة من غرس مولى النعم ، فمجلس إدارة الجامعة يلتبس
من مكلام الجناب العالى الخديوى ، إن سمح وقته الثمين ،
الإذن السامى بحظوة الطالب المذكور بالمشول بين يدى سموه .
وكيل الجامعة

شفيق

وقد كان لهذه البرقية أثرها فى نفس سمو الخديوى ،
فأذن بالمقابلة وتحدد الموعد . . . ويشير نص المحضر إلى
ما يلى :

« فى الساعة الرابعة من مساء يوم الثلاثاء ١٢ من مايو
سنة ١٩١٤ تشرف صاحب السعادة أحمد شفيق باشا وكيل
الجامعة المصرية بالمشول بين يدى الجناب العالى ، وقدم إلى
سموه الدكتور طه حسين ، فتلقاهما سموه ، حفظه الله ،
بما عهد فيه من البشاشة والبشر ، وأظهر من العطف على

الجامعة وخريجها ما يستحقان أن يهنا به ، ولبثا بين يديه
مدة من الزمن ، وكان سموه يتفضل ويسأل سعادة شفيق
باشا عن كيفية امتحان الدكتور طه حسين ، وموضوعه ،
وأسماء الممتحنين ، والدرجات التي نالها في الامتحان ، فإذا
شرح لسموه ذلك ، وعلم أيضاً أنه أمضى امتحانات آداب
اللغة الفرنسية ، أظهر من السرور والابتهاج ، ومن الإعجاب
بنتيجة الجامعة المصرية ، والاستبشار بجمال مستقبلها ،
ما هو ضمان لحسن منزلة الجامعة من قلب الخديوى حفظه
الله ، وعظم حظها من عطفه السامى ، ومعونته المالية . وقد
أعجب سموه إعجاباً خاصاً ، حين علم أن الدكتور طه
حسين قد درس الفرنسية ، وأدى في آدابها امتحاناً نال فيه
٢٨ من ٣٠ درجة ، وقد تفضل سموه فسأل الدكتور طه حسين
عن مبدأ دراسته ، وعن المدة التي قضاهما في الأزهر الشريف .
ولما علم سموه بعزم " الجامعة المصرية " على إرسال الدكتور
طه حسين إلى أوربة لإتمام درسه هناك ، أظهر من الرضا
بذلك ، والسرور له ، ما شجع الدكتور طه حسين على كل
ما عسى أن يلقي من المتاعب في سبيل العلم وتحصيله ، لنفع
الأمة والجامعة المصرية ، ثم مثل الدكتور طه حسين بين
يدى المليك وقال :

” إن الجامعة هي من غرس يدك الكريمة ، وريبة
 نعمتك الشاملة ، وإنما أنا ثمرة من ثمارها ، وأثر من آثارها
 فليس عجيباً أن تكون حياقي مثال الإخلاص والولاء لحضرتك
 الفخيمة ، وشخصك الكريم ، بذلك أدين الله وأعاهد
 مولاي . . “

فارتاح الخديوي إلى هذا الكلام . وشكر الدكتور
 ووكيل الجامعة شكراً جميلاً ، وانصرفا من لدن سموه وألسنتهما
 منطلقة بالثناء عليه ، والدعاء له بدوام العز وطول
 البقاء .

أخذ الدكتور طه يعدّ العدة للسفر إلى باريس . . ولم يكن ذا سعة ، ولم يشأ أهله أن يقفوا دون تحقيق رغباته بالرغم مما هو عليه . . وكان لتفوقه أثره في نفوس الجميع . من عرف ومن لم يعرف .

ولعل من أطرف وثائق الجامعة القديمة أيضاً ذلك الالتباس الذى قدمه إليها الطالب الأزهرى السابق الشيخ طه حسين - هكذا - لكى تقرضه خمسة عشر جنيهاً يشتري بجزء منها ملابس أجنبية بدلاً من زيه الأزهرى . ويسدد بالباقي أجرة الغرفة التى كان يسكنها ، استعداداً للسفر فى البعثة إلى باريس فصرفت له ، كما صرفت له المكافأة التى وقفها الدكتور محمد علوى باشا ابتداء من عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم حسين علوى ، وقدرها عشرة جنيهات لمن ينبغ من طلاب الجامعة المصرية عن سنتى ١٩١٣ و ١٩١٤ بالنظر لتفوقه فى الدراسة ونواله إجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جداً .

وفي شهر مايو من سنة ١٩١٤ ، ركب الشيخ طه حسين
البحر في طريقه إلى فرنسا ، وما كاد يصل إلى مرسيليا
حتى أخذ طريقه إلى مونبلييه لدراسة العلوم التاريخية .

وقد أيقظ السفر في نفسه عوامل مختلفة سجلها أكثر من
مرة في رسائله التي كتبها من باريس . وليس هنا موضوع هذه
الرسائل التي تضمنتها بعض كتبه بل حسبنا أن نشير إشارة
خاطفة إلى سني دراسته في باريس ، ونعتمد على بعض
أحاديثه في هذا الصدد ، قال :

« . . وصلت إلى باريس في أول يناير سنة ١٩١٦ ،
بعد ما مكثت عاماً في مونبلييه ، وكنت قد بدأت الدراسة بها .
ثم ساءت حالة الجامعة المالية فأعادتنا في أواخر عام ١٩١٥ .
ومكثت ثلاثة أشهر في مصر . وما أحسبني تأملت في حياتي
تألم في هذه الشهور الثلاثة ، وأثر هذا الألم لانقطاع دراستي
قد ظهر في مقالات بجريدة " السفور " ، وبعد ذلك ساعد
المغفور له السلطان حسين الجامعة فأعادنا إلى باريس .
» وأول ما وصلنا نزلنا في تريانون بالاس أوتيل في أول

شارع فواجيرار ، ومكثنا بضعة أيام ، وبعد ذلك سكنت
عند عائلة تقطن الطابق السادس من البيت نمرة (٣٢)
بشارع ديفير روشروه . . وفي تلك العائلة فتاة كانت تدرس
بمدرسة المعلمات بسيفر فساعدتني كسكرتيرة ، والفضل لها في
أنه أمكنتني أن أدرس اللاتينية . كما درستها مع شارل بران
الصحفي المشهور والأستاذ بمدرسة لوى لوكراند . وفي عامين
درست اللاتينية ، وبذلك أتممت ما يقضيه الشاب الفرنسي
في ست سنوات بين ثانوية وعالية .

« كانت حياقي بياريس مقسمة بين ثلاثة معاهد أو أربعة :
السربون ، وفيه كنت أحضر دروس التاريخ القديم ؛ تاريخ
اليونان على جلوتز ، وتاريخ الرومان على بلوك . والأدب
الفرنسي على لانسون ؛ والفلسفة والاجتماع على دوركام ،
وديكارت على ليفي برول ، واللاتيني على مارنا ، والثورة على
أولار ، والبيزنطي على شارل ديل ، والتاريخ الحديث على
سينبوس ، والجغرافيا على ديمانجون وجالوا .

« والمعهد الثاني هو الكوليج دي فرانس ، وكنت أحضر فيها
درس القرآن بالعربية على كازانوف ، وعلم النفس على بير جانيه .
« والمعهد الثالث مكتبة القديسة جينيفيف . كانت
تصحبني الآنسة ، وكانت لي غرفة خصني بها مدير المكتبة ،

وكنّت ألجأ إليها شتاء عام ١٩١٧ ، وكان البرد شديداً ، ولا وسيلة إلى التدفئة في البيت ، فكنا نذهب لندرس ونتدفأ في وقت واحد .

«البيت : أعده المعهد الرابع ، فقد كنا نجتمع في المساء ، الآنسة وأختها وأمها وأنا ، فتقرأ إحداهن رواية ، أو رواية تمثيلية أو قصة أدبية ، فقرأنا تمثيل القرن الماضي . وكثيراً من كتب أناتول فرانس وبورجيه وبريفو ، وكنا نقرأها بانتظام بعد العشاء كل ليلة ولا يقطعها إلا مداهمة الطيارات واضطرابنا إلى النزول في "البدروم" . ولم تمض أشهر على إقامتي في باريس مع هذه العائلة حتى أحببت الآنسة التي كانت تعمل معي وخطبتها ، وبعد سنتين ، أعني عام ١٩١٧ طلبت من الجامعة الإذن بالزواج فأذنت ، وتزوجنا في أغسطس ولكن بعد ما كنت قد أديت امتحان الليسانس » .

* * *

لقد أحب طه حسين تلك الفتاة الفرنسية التي كانت النور الذي أضاء له جوانب حياته .. وما كان وهو في باريس ليفكر بالحب الآثم .. وأراد أن يتزوجها لتكون شريكة حياته .. وقد قامت دون هذه الرغبة عقبات .. فما كان ليسمح للطلاب بالزواج من الأجنبيةات .. وعلى طه حسين ، الشيخ الأزهرى ،

أن يخضع لما تفرضه الأنظمة .. ولكن هناك عوامل كانت تدعوه
أن يربط حياته بمن خفق قلبه بحبها وكانت له خير أنيس
يبدد هذه الوحشة من غربة السفر ويضيء بعض ما نزل به
من ظلمة القدر .

وتقدم إلى الجامعة يلتمس الإذن له بالزواج الاستثنائي .
وقد شرح العوامل التي دفعته لهذا الزواج ومما جاء في خطابه
قوله :

« إنه بالنسبة إلى حالته الطبيعية الخاصة التي تقتضى اشتراك
شخص آخر معه ليساعده على الدراسة ، وبالنسبة إلى كونه ،
مدة إقامته في فرنسا ، وجد في أسرة منها فتاة كانت قارئته
وكاتبتة . وقد أخلصت له الإخلاص كله ، بحيث أصبح
لا يرى بداً من مرافقتها ، فهو يلتمس من الجامعة
التجاوز له عن الشرط القاضى بعدم زواج الطلبة مدة
دراسهم ، والإذن له بصفة استثنائية في الزواج » .

وقد تداول المجلس في هذا الموضوع ، واختلفت الآراء فيه ،
فبعضهم قبل بالموافقة على هذا الطلب الاستثنائي ، مراعاة لحالة
هذا الطالب الخصوصية ، وبعضهم قال بالرفض احتراماً لقرار
المجلس السابق صدوره في ١٥ مارس سنة ١٩١١ القاضى بعدم جواز
تزوج طلبة الإرسالية ماداموا في سلك الدراسة بأوروبا ، وبعد

مناقشة طويلة تقرر أخذ الآراء ، فكانت النتيجة ما يأتي :

١ :

- | | | |
|------------------------|---|------------------------|
| أبدوا رأيهم برفض الطلب | } | ١ - إسماعيل حسنين باشا |
| | | ٢ - عبد الله وهبي باشا |
| | | ٣ - حسن سعيد باشا |

ب :

- | | | |
|-------------------------|---|----------------------------|
| أبدوا رأيهم بقبول الطلب | } | ١ - الدكتور محمد علوي باشا |
| | | ٢ - المسيو فوكار |
| | | ٣ - عبد العزيز فهمي بك |
| | | ٤ - أحمد لطفي السيد بك |

وهكذا . فقد تقرر بالأغلبية الإذن للشيخ طه حسين
بالزواج من الفتاة التي يرغب في الزواج منها .

وكانت هذه الفتاة الآنسة سوزان وقد أشار روبير لاندرى ،

الكاتب الفرنسي الشهير ، إلى هذا الزواج بقوله :

« . . . وذات يوم بينما كان طه حسين على مقعده في قاعة

المحاضرات في جامعة السربون سمع صوتاً جميلاً يرن في أذنيه ،

صوت صبية حنون تقول له بعدوبة :

إني أستطيع أن أساعدك في استظهار الدروس . كانت

صاحبة الصوت سوزان التلميذة الفرنسية المنحدرة من عائلة
كاثوليكية في مدينة بورغون .

وقد ظلت سوزان تتردد زمناً طويلاً قبل أن تتزوج طه
 حسين المسلم .

ولكن أحد أعمامها استطاع أن يقنعها ، وكان ذلك العم
 قسيساً ، وقد قال لها : « مع هذا الرجل يمكن أن تنقّي بأنه
 سيظل معك دائماً » .

وعاشت سوزان وطه حسين في منزل متواضع في الحي
 اللاتيني . وهنا بدأت مهمة الزوجة المثالية في إخراج زوجها
 عن عزلته الروحية والمادية عن الناس ، وعاش طه حسين معها
 وأصبحت سوزان " الحاسة السادسة " له ، وأخذت تكافح معه
 ومن أجله كل حجب الظلام » .

وقد قص علينا الدكتور طه فيما بعد قصة هذا الزواج
 وملايساته ، وعوامل حبه لسوزان ، وما كان من وراء هذا
 الحب ، بهذه الصورة الأدبية التي تعد من أجمل قطع أدب
 الاعترافات لهذه الفترة من حياة الكاتب .

قال الأديب العظيم :

« كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر أيار ١٩١٥ في مدينة

مونيليه فى وقت يقع بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ويقع كذلك بين عاصفتين عنيفتين من هذه العواصف التى تثور فى بعض المدن الفرنسية حين يتقدم الربيع وتبدو طلائع الصيف فتجتمع فى السماء سحباً ثقالاً كثافاً ، ثم تبعث فى الجو ما شاء الله من برق خاطف ورعد قاصف . ثم تفتح أفواه القرب فتصب الماء على الأرض صباً ثم تصفو السماء وينجلي الجو وتستقر الأشياء ويتحدث الناس عن شدة العاصفة وغزارة المطر ويستعدون لعاصفة أخرى شديدة ومطر آخر غزير .

فى هذا الوقت ، وبين هاتين العاصفتين طرق باب غرفتى ، وكنت أنتظر أن يطرق ، وكنت أخشى أن تحول العاصفة بينى وبين ما كنت أنتظر . ثم فتح الباب ودخلت منه فتاة تصحبها أمها فسلمت فى استحياء وسلمت فى استحياء وأخذنا فيما كنا قد التقينا له من حديث .

ولم يكن حديثنا طويلاً ولا متبسّطاً ولا منوعاً ولا طلقاً وإنما كان مقيداً أشد التقيد . كنت أول أجنبي تراه هذه الفتاة ؛ وكانت أول فتاة تزورنى ، فلم يكن سبيل إلى أن يسهل بيننا الحديث فضلاً عن أن يختلف ويتنوع ، ولكنه على كل حال كان حديثاً له ما بعده ملاً قلبى غبطة وبهجة وجوراً وأملاً نظمنا به مواعيد نلتقى فيها إذا كان المساء من كل يوم فنقرأ

ما شاء الله أن نقرأ من أدب وفلسفة وتاريخ ، وإني لأكذب
 القارئ إن زعمت له أني نمت في تلك الليلة نوماً هادئاً مريحاً . وإني
 لأصدق القارئ أن أنباته بأنني قد اتخذت هذا اليوم عيداً أحياه
 في كل عام مهما تكن الظروف ، ومهما تكن الخطوب . واتصل
 لقاءنا شهرين كاملين في المساء من كل يوم نقرأ الأدب الفرنسي
 في القرن السابع عشر ، ونحدث أحياناً . ولست أدري أي الأمرين
 كان أحب إلي وأحسن موقعاً في نفسي - القراءة أم الحديث ؟
 ولم ينقض هذان الشهران حتى كان بين هذه الفتاة وبينى
 ود عقلي خالص قوامه حب هذا الأدب الذي كنا نقرؤه والذي
 كانت تفسره لي وتدلاني على مواضع الحسن فيه .

ثم مضى بها الصيف إلى حيث يصطاف الفرنسيون من أعلى
 الجبل وسواحل البحر ، وبقيت أنا في هذه المدينة أقرأ الأدب
 الفرنسي مع غير هذه الفتاة ، ولكن لم أكن أسمع صوت
 قارئتي وإنما كنت أسمع صوت صديقتي ، وكانت الكتب
 بيننا متصلة فكثيراً ما كنت أستبقي بعض ما يعرض لي من
 المشكلات فيما أقرأ لأسألها عنه ، وما كنت أجدر الرضا إلا
 فيما كانت تجيبني به .

ثم يريد الله أن أعود إلى مصر يائساً ، وأن تذهب هي إلى
 باريس ولكن الكتب تتصل بيننا على ذلك . ويظهر أثر ما كنت

أجد من الحزن واليأس فيما كنت أكتب من الفصول أثناء تلك
الأشهر الثلاثة التي قضيتها في القاهرة غريباً بأصح معاني الكلمة
وأدقها بين أهلى وأصدقائي من المصريين .

ثم تتاح لى العودة إلى فرنسا فإذا أنا أعدل عن مونبليه إلى
باريس لأن السوربون فى باريس ، ولأن سوزان فى
باريس أيضاً .

والله وحده يعلم مقدار ما ملأ قلبى من الغبطة والرضا
حين بلغت مدينة نابولى فوجدت منها كتابين قرأهما على
صاحبى الدكتور أحمد ضيف مرة ومرة ومرة حتى إذا سمع القراءة
وكره أن ننفق فيها هذه الساعات التى قدرلنا أن ننفقها فى نابولى
ردّ إلى كتابى وأكرهنى على الخروج .

ثم أبلغ باريس وألقى صديقتى . وشهد الله ما افترقنا بعد
هذا اللقاء إلا كارهين — كنا نلتقى إذا أصبحنا ، ونلتقى إذا
أمسينا ، ونقضى معاً شطراً من الليل فى صحبة أمها وأختها لأنى
اخترت المقام فى أسرتها ولم يكن يفرق بيننا إلا الدروس التى كنا
نختلف إليها ، وما أكثر ما كنا نلتقى بين درسين فى هذين
العامين من سنة ١٩١٦ إلى أواخر سنة ١٩١٧ ، كانت صديقتى
أستاذة لى ، عليها تعلمت ~~الفرنسية~~ ^{اللاتينية} وفقهت ما أستطيع أن أفقهه من
أدبها ، وعليها تعلمت اللاتينية واستطعت أن أجوز فيها امتحان

اليسانس ، ومعها درست اليونانية ، واستطعنا أن نقرأ معاً بعض
 آثار أفلاطون ، على أنى قضيت من عام ١٩١٦ أشهراً ليس
 بينى وبين صديقتى إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين
 الصديق والصديق ، ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسى .
 وما أظن أنك تطمع منى فى أن أصورك ما كان يثير هذا
 الحب فى قلبى من عاطفة ، وما كان يذود عنى من نوم ، وما
 كان ينعّص على من راحة ، وما كان يضيع على من درس .
 لقد كنت أسمع صوتها وهى تقرأ لى أو تتحدث إلى فأشغل
 بهذا الصوت عما كان يحمل إلى من الألفاظ وعما كانت تدل عليه
 هذه الألفاظ من معان ، ولو أن سائلاً سألنى فى وقت من هذه
 الأوقات عما سمعت أو عما وعيت لما استطعت أن أجيب إلا بأنى
 سمعت أجمل الموسيقى وأعذبها ، ولو أن سائلاً سألنى عما وعيته
 من هذه الموسيقى الجميلة العذبة لما استطعت أن أجيب إلا
 بأنى أحب مصدرها . ولكن أحداً لم يكن يسألنى فلم
 أكن فى حاجة إلى أن أجيب إنما كنت أسأل نفسى وأجيب
 نفسى وأغبط بما كنت أجد من سعادة ، ولا أحفل بما
 كنت أضيع من وقت ودرس ، ثم يأتى هذا الحب إلا أن يعلن
 نفسه ولكن لا يلتقى صدى إلا أن يكون هذا الصدى رفقاً
 وعطفاً وإشفاقاً ، والحب لا يسأم ولا يمل ولا يعرف الفتور

ولا يخاف الإخفاق ولكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه . وقد
ألح حبي وأسرف في الإلحاح ، واضطرت صديقتي إلى أن
نفترق فتركتني في باريس ومضت هي إلى الجنوب مع الصيف .
فيا لها أسابيع تلك التي قضيتها في باريس لم أعرف فيها راحة
ولا نعمة ولا أمناً ولا هدوء ، والكتب مع ذلك متصلة بيننا .
ثم ينتهي إلى كتاب منها تدعوني فيه إلى أن ألحق بها حيث تقيم .
إنه الرضا إذن ، وإنه الفوز ، وإنه فصل من فصول الحياة يجتم
وفصل آخر يبتدئ . أحبب إلى هذه القرية الريفية من قرى
الجنوب في سفح البرانس ، هنالك أعلنت خطبتنا في مساء يوم
من الأيام ، فلما أصبحنا بدأنا ندرس معاً مقدمة ابن خلدون ،
ونستعد معاً لتهيئة الرسالة التي سأقدم بها لامتحان الدكتوراه .
وقضينا عاماً كاملاً خطيين صديقين ندرس الأدب
والفلسفة والتاريخ واللاتينية ، ولا نستطيع أن نفكر في الزواج ،
فلم يكن بد من إذن الجامعة ولم يكن سبيل إلى طلب هذا الإذن
حيث يثبت للجامعة أني لا أنفق أياماً في فرنسا عابثاً ولا لاعباً .
والله يشهد ما عشت وما لعبت ، والذين عرفوني في فرنسا من
المصريين يشهدون ما عشت وما لعبت ، والله يشهد ما عرفت
في حياتي كلها وقتاً ملأه الجدل الذي لا جد بعده ، والطهر
الذي لا طهر بعده ، والنقاء الذي لا نقاء بعده كهذين العامين

الذين قضيتهما في باريس أثناء العمل ، وفي الجنوب أثناء الصيف .

وأى جد يشبه هذا الجلد الذى يحمل الخطيبين على أن يجتمعا إذا أصبحا ليقرا فلسفة أغوست كونت . أو ينغمسا في تاريخ اليونان والرومان . أو يغرقا في آثار تاسيت وتتليف وهرودوت ؟ ومع ذلك فعلى هذا النحو قضيت مع صديقتى عامين . ولقد كنا نخرج للنزهة في بعض ضواحي باريس . ولقد كنا نتمتع في المشي في بعض الغابات حتى إذا خلا لنا المكان وتخيرنا مجلساً جميلاً حلوا يصفو فيه الحديث بين المحبين جلسنا فتحديثنا في بعض آمالنا . ثم فتحنا كتاباً من هذه الكتب التي هي أبعد الأشياء عن الحب وجوه فانغمسنا فيه سعيدين . وفي سنة ١٩١٧ استطعنا أن نظفر بالليسانس - واستطعت أن أستأذن الجامعة في الزواج . واستطاعت الجامعة أن تأذن لي ، فقد كنت أول عضو من أعضاء بعثتها ظفر بإجازة الليسانس في الآداب . . وفي اليوم التاسع من آب ١٩١٧ حين أوشك النهار أن ينتصف أتم الله نعمته عليّ وجعل لي من سوزان ، كما قلت في تصدير بعض كتيبي : ” نوراً بعد ظلمة . وأنساً بعد وحشة . ونعمة بعد بؤس “

ورجع إلى مصر لا مع سوزان وحدها كما يرجع أكثر

الطلاب الشرقيين مزهوين بزواج تيس . بل رجع مع سوزان
 يحمل أرفع الشهادات - يحمل الليسانس وقد نالها سنة ١٩١٧
 والدكتوراه وقد نالها سنة ١٩١٨ ، ودبلوم الدراسة العليا في
 التاريخ القديم ودراسة اللاتينية واليونانية التي نالها ١٩١٩ ، عدا
 اللغة الفرنسية التي حذقها كأبنائها .

أحب الدكتور طه ، وهو في باريس ، أن يقدم إلى مصر
 ثمرة جديدة من ثمرات جهده وذكائه ، فن يأتي بعد
 أبي العلاء ؟ لقد استعرض الشخصيات الفذة في تاريخ
 العرب الفكرى ، فرأى أمامه ثباتاً طويلاً بالأسماء كان ابن
 خلدون ألمعهم وأقربهم إلى نفسه . فعكف ، في باريس ،
 يدرس حياته وآراءه ونزعاته ، وما زال حتى كتب رسالته
 الجامعية — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية — كتبها بالفرنسية
 سنة ١٩١٧ ونال بها الدكتوراه من السربون بتفوق باهر ،
 وقد منحته « الكوليج دى فرانس » جائزة « سنتور » المعروفة .
 وليس بالأمر السهل أن يغوص طالب أزهرى درس
 الفرنسية وهو شاب ، وفي مدرسة خاصة — إلى أعماق حياة
 ابن خلدون يستجلي نظرياته الفلسفية في السياسة والاجتماع
 والاقتصاد ويكتب حولها رسالة جامعية بالفرنسية تنال أعظم
 تقدير من أساتذة السربون — ليس هذا بالسهل على طالب
 أزهرى . . ولكن لا شيء بالنسبة لألمعية طه حسين الذى
 كان في حياته الدراسية رمزاً للدأب والصبر والدكاء .

وقد كان لظهور هذه الرسالة أثره في مصر ، واعتبرتها
الأوساط الأدبية أول بحث علمي منظم كتب عن ابن خلدون ،
كما كانت رسالته عن « ذكرى أبي العلاء » أول بحث علمي
منظم كتب عن ذلك الشاعر .

وإنه لمن دواعي الاعتزاز بالعقلية الشرقية أن يقدم شاب
في أواخر العقد الثالث من عمره ، وفي تلك الفترة ، على معالجة
قضايا في فلسفة الاجتماع كتبها مؤرخ عربي قبل ستة قرون
فيبرزها بلغة غير لغته في صورة تحوز رضا أساتذته ويظفر
بأكبر شهادة من جامعة السربون .

وطه حسين ، إلى اعتداده بنفسه ، يبدو جم التواضع ،
فحين أملى هذه الرسالة أحب أن يعتذر عن أسلوبه الفرنسي
فكتب في مقدمة الرسالة يقول :

« وليسمح لي بأن أعتذر عن أسلوبى الفرنسى إذا ما بدا ،
بلا ريب ، في كثير من المواضع ركيكاً أو خاطئاً . . وكذلك
عن الأغلاط المطبعية التى قد تقع في هذه الرسالة فما كنت إلا
غريباً وأعمى ! . . »

* * *

لقد أحب طه حسين ابن خلدون كما أحب أبا العلاء . .

وإنه ليكشف لنا عن عوامل هذا الحب بالكلمة التمهيدية التي قدم بها رسالته بقوله :

« يحتفظ تاريخ الآداب العربية منذ عصر الجاهلية إلى عصرنا هذا بذكو رجلين يمتاز كل منهما بابتكار خارق لم يتصف به أحد من المسلمين أساتذة كانوا أم تلامذة . . أولهما أبو العلاء المعري الذي استحدث في أدبنا صنفين لم ينسج مثلهما منذ عهده . فقد استعرض في مجموعة شعرية اسمها " اللزوميات " فلسفة باهرة تفيض زهداً وتشاؤماً حتى قيل إنه لو كريس العرب ، وتخيل لنا في شبه قصة اسمها " رسالة الغفران " التي تذكرونا قراءتها بالكوميديا الإلهية — رحلة إلى العالم الآخر وصف لنا فيها الجنة والنعيم وصفاً قوياً رائعاً .

أما عمل الثاني : فطبيعته تخالف عمل الأول تمام الخلاف ، وقد لا يجب أن نصفها بالعبقريّة . كان ابن خلدون عقلية عملية ، لم تمكنه حياته الدبلوماسية ، التي مزجت أيما امتزاج بالدسائس والمصاعب السياسية ، من أن يطيل التأمل في نفسه أو في الحياة الأخرى ، على أنه استخرج من تلك الحياة ذاتها ، ومن دراسته لتاريخ الإسلام ومختلف النظريات الفلسفية التي عرفها المسلمون دراسة عميقة مستفيضة — فلسفة جديدة موضوعها : المجتمع وتاريخه . »

وقد عرض طه حسين آراء ابن خلدون وفلسفته ونظراته في الحياة والمجتمع — آراءه في الظواهر الاجتماعية للحياة البدوية والخواص العامة لحياة الحضرة . . وهو في عرضه لآراء ابن خلدون ومذهبه السياسى والاجتماعى كان يناقش المؤرخ بتؤدة حيناً وبصرامة حيناً آخر . . وما يزال حتى يستخلص الفكرة التى تبدوله صحيحة على ضوء مختلف المذاهب الفلسفية والقيم الأخلاقية وشتى النزعات الاجتماعية لعصره . فمن أمثلة ذلك : رأى ابن خلدون بالعرب — ذلك رأى الذى يقول فيه إن العرب ليسوا أهلاً لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر دينى قوى ، وإنهم يجهلون مياسة الملك . . . إلى غير ذلك مما جاء استطراداً فى مقدمته . وقد ناقش طه حسين هذا الرأى فى صلب رسالته الجامعية مناقشة علمية هادئة دحضت آراء المؤرخ الكبير . . ومن كلماته فى هذا الصدد ، بعد أن عرض لفكرة ابن خلدون ، قوله :

« ليس لنا أن ندخل فى تفاصيل الإصلاحات القيمة التى استحدثتها حكومات الخلفاء الراشدين والأمويين وبنى العباس . على أنه من المحقق أن العرب من بين جميع الأمم التى قبضت على ناصية الحكم فى الدولة الإسلامية فى العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولى حكمها ، وأمهر من

عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلي والمادى ، وليس لنا إلا أن نقارن النتائج التى ترتبت على حكم الترك والعرب فى بلاد المشرق حتى نقرر أن العرب ما فعلوا سوى أن شادوا وعمرؤا . وأن الترك ما فعلوا سوى أن أبادوا وخرّبوا . »
وانتهى إلى أبعد من هذا ، فرأى فى المذهب الذى اعتمده ابن خلدون لدراسة التاريخ نهاية التزمّت والضيق فقال :

« ألا يكفى ابن خلدون أن تلك القبائل البدوية التى خرجت من القفار والتى كانت حتى خروجها بعيدة عن كل مجتمع متمدن قد وصلت إلى أن تفرض دينها ولغتها على قسم عظيم جداً من العالم الرومانى الفارسى القديم . فيحكم عليها بأعدل مما فعل ، وربما بشيء من شكر الصنيعة ، وإذا كان ابن خلدون لم يفهم بأحسن مما فهم أن الحضارة التى تمتع بها هى من صنع العرب ، فلا ريب أن ذلك لأن المذهب الذى يدرس به التاريخ ضيق جداً ! »

ولا يتسع المجال لأن نسرد الكثير من آراء طه حسين فى نقد ابن خلدون ، ولكن حسبن القول إن إعجاب طه حسين بعبقريّة المؤرخ الفذ لم يمنعه ، كعالم يدرس نظرية مؤرخ عالم ، أن يناقشها وينقدها . . وقد جمّت بهذا الاستطراد الطويل

لأدحض هذه الفكرة التي يلوكمها « الشعوبيون » عن العرب ،
 ويستندون فيها إلى رأى ابن خلدون الذى فنده طه حسين ،
 ولأننى عن طه حسين ، من جهة ثانية ، هذه الفكرة الخاطئة
 التى عاشت فى عقول البعض ، فترة ما ، عن فرعونية طه
 حسين وكرهه للعرب ! !

وبعد فقد كدت أخرج ، بهذا الاستطراد ، عما أنا
 بصدده . .

فلأقف عند هذا الحد ، إذ لا أريد أن أتحدث عن
 كتابه الثانى « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » أكثر مما
 تحدثت ، فحسبى القول إن هذه الرسالة كتبها طه حسين فى
 فجر شبابه ، وكان لها ، بعد أن ترجمها الأستاذ عنان إلى
 العربية ، نفس الأثر الذى كان للرسالة الأولى ، سواء فى
 المحيط الجامعى أم فى الأوساط الأدبية .

٨

إننا مع طه حسين . وهو في الثلاثين من عمره ، وقد بدأ حياته الأدبية بداية حسنة ، أصدر كتابين كان لهما أثرهما البالغ في نفوس القراء . . وظل ، بعد أن فاز بدكتوراه الأدب من السربون ، يقرأ الفرنسية واللاتينية ويتعمق بدراسة أدبهما إلى أن ملك ناصيتهما وعاد إلى وطنه ممثلاً بالآمال ، وكان بين أفراد البعثة الوحيد الذي لم يخيب ظن أساتذته .

* * *

عاد من فرنسا ممثلة نفسه بالمعرفة ، وقد حرص أن يفرغ كل ما وسعه فهمه وعقله وذوقه وحسه إلى أبناء وطنه . لقد اختير تلميذ الجامعة القديمة للتدريس فيها . . ومن أليق منه لإشغال هذا المنصب . . وبدأ يدرس التاريخ اليوناني القديم . وكانت الجامعة في بدء تكوينها . . وكان أكثر تلامذتها ممن صهروا في بوتقة هذه الدراسات المحدودة ذات المناهج العتيقة . وأراد الدكتور أن تحذو الجامعة في نهجها حذو جامعات الغرب ، فلم يكد يبدأ هذا النحو الجديد ويفرض على تلامذته دراسة التاريخ اليوناني حتى رضى قوم وسخط آخرون . .

« وكان الذين رضوا أقل الناس عدداً ، والساخطون أكثرهم جمعاً وأضحخمهم جمهوراً . . قالوا : ما لنا ولتاريخ اليونان ، ندرسه ونحفل به ، ننفق فيه ما نملك من وقت ، ونضيع في سبيله ما عندنا من قوة وجهد ، ونحن إلى إنفاق ذلك الوقت ، وهذه القوة والجهد في درس تاريخ مصر خاصة ، والأمم الإسلامية عامة أشد ما نكون حاجة ! . .

وما شك الدكتور طه بذلك . . ولكن قال لهم هل يمنع هذا أن ندرس تاريخ اليونان القديمة . بل ذهب إلى أبعد من هذا حين قال إن فهم التاريخ المصري خاصة والتاريخ الإسلامي عامة موقوف على فهم التاريخ اليوناني ، فما ينبغي لأحد أن ينسى ما كان للحضارة اليونانية من التأثير الظاهر في حضارة العالم كله ، ومنه البلاد الإسلامية ، ولم يكن هذا التأثير مقصوراً على الحياة العقلية والأدبية بل تناول الحياة السياسية ، فإن اليونان قد ملكوا الشرق أكثر من قرنين فوضعوا فيه نظاماً لم يكن له بها عهد ، وجاء الرومان فلم يحسوا هذه النظم ، ثم جاء العرب فأخذوا ما وجدوا ، ولم يزيّدوا على أن عربوه ، ومن الميسور على كل مؤرخ متقن لعمله ، إذا درس تاريخ الأمم الإسلامية أن يتميز النظم القديمة وما بينها وبين النظم الإسلامية من صلة . وإذا كان درس التاريخ في رأى المؤرخين المحدثين عملاً تحليلياً قبل

كل شيء ، أى أنه يلزم المؤرخ أن يرد كل شيء إلى أصوله
التي ألفته وعملت على تكوينه ، فلا شك أن مؤرخ الأمم
الإسلامية ولا سيما مصر ، يجب عليه أن يعرف تاريخ الأمة
اليونانية ويتقنه ، لكي يستطيع أن يميز ما كان لها من أثر في
حياتها العقلية والاجتماعية والسياسية .

- بهذا الأسلوب الرائع حبيب الدكتور طه حسين إلى تلامذته
دراسة التاريخ اليوناني ، وما لبث أن قدم إلى قراء العربية نماذج
مختارة من الشعر التمثيلي ، ثم من الأدب التمثيلي عند اليونان -
نقل إليهم ألواناً مختلفة من التراجيديات ، وألواناً من الكوميديا
لإيسكولوس وسوفوكليس - عدا محاضراته التاريخية الممتعة التي
نشرت في صحيفة « الجامعة المصرية » القديمة ، وعدا كتابه
« نظام اللاتينيين » الذي ترجمه عن أرسطاطاليس ، ذلك
الكتاب الثمين الذي استكشف في مصر سنة إحدى وتسعين
وثمانمائة وألف ، ثم نقل إلى المتحف البريطاني في لندن ،
ثم طبع في لندن وباريس وغيرهما كما ترجم إلى الإنكليزية
والفرنسية والألمانية والإيطالية من اللغات الحديثة ، وظلّت لغة
الضاد محرومة منه إلى أن جاء طه حسين فنقله إلى العربية ،
وبذلك أسدى أكبر خدمة لرجال الفكر والقضاء .

وهكذا ، فقد فتح الدكتور طه باب الدراسات اليونانية

علي مصراعيه فوجه الكثيرون ، وقدم لنا تلاميذه نماذج حية
 من هذا الأدب الرفيع الذي كان يعتبره غوته شاعر الألمان الأكبر ،
 ركيزة الدراسات الأدبية كلها . ومن قوله عن هذا الأدب :
 ادرسوا مولير ، وادرسوا شكسبير . ولكن قبل كل شيء ادرسوا
 الإغريق القدماء . . دائماً الإغريق . . وهذا ما أراده الدكتور
 طه حسين حين وجه تلامذته إلى دراسة تاريخ هذا الشعب ،
 بل ذهب إلى أبعد من هذا — إلى ضرورة تدريس اللغة اللاتينية
 واليونانية في المدارس الثانوية .

اثنان من أدباء العرب المعاصرين عرفا قيمة هذا الأدب :
 سليمان البستاني بترجمته إلياذة هوميروس وطه حسين في
 توجيهاته وتعريبه طائفة من نماذج هذا الأدب .

لم يشأ الدكتور طه أن يخصص نشاطه في البيئة الجامعية ، بل
 توزع هذا النشاط على الصحف والمجلات وعلى دور النشر
 وندوات الفكر ، وقوى في عام ١٩٢٢ تحرير الصحيفة الأدبية لجريدة
 « السياسة » . وكانت لعهدا من أقوى وأرقى صحف مصر ،
 ضمت إلى هيئة تحريرها صفوة من أكابر رجالات الفكر
 وأساطين الساسة وزعماء المدرسة الحديثة ، وأخذ الدكتور طه
 ينشر كل يوم أربعاء بحثاً ممتعاً من بحوثه الرائعة في الأدب العربي -
 أدب الأمويين والعباسيين ، وكل يوم أحد قصة ملخصة عن
 أدب الغرب . وقد أثارت بحوثه ، ولا سيما بحوث الأدب العربي ،
 تأثيراً رجال الأدب ، لا بروعة المباحث وجدتها فحسب ، بل
 بالآراء الجريئة التي كان يرسلها والتي كانت تميظ اللثام عن حقيقة
 الحياة السياسية والاجتماعية للعصر الذي درسه ، ثم بإثارة معركة
 القديم والحديث في الأدب . هذه المعركة التي كانت بداية الانتفاض
 والبعث الأدبي . نعم ، لقد أثار الدكتور طه تأثيراً القدماء
 حين أعلن أن العصر الذي انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت

فيه الدولة العباسية هو عصر شك وعبث ومجون . . أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته .

كيف يجرؤ طه حسين على هذا القول وقد اعتادوا أن يُضفوا صفة القداسة على كل ما هو قديم ؟ !

إنه لم يعبأ بأقوالهم وبهذا الإيمان الذي عاشوا في صميمه معصوبى العيون . لقد انتهى إلى أن العصر الذى أعقب انحلال الدولة الأموية عصر شك وعبث ومجون ، وعلى ضوء هذه النظرية أو هذه الفكرة أخذ يبحث حياة الشعراء الماجنين . . وما كادت بحوثه تظهر ويتهافت عليها القراء حتى أخذ القدماء يردون عليه ردوداً طويلة خلاصتها أنه لا يصح أن يتخذ هؤلاء الشعراء صورة لذلك العصر . . وهنا كان جواب طه حسين أن نظريته ، في فهم التاريخ ، تختلف عنهم كل الاختلاف . فهم يريدون أن يسبقوا على التاريخ الإسلامى صفة الجلال والتقديس الدينى أو الذى يشبه الدينى — تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح . فهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلال الأعمال ويرفعونهم عن صغائرها ؛ وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد . . فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، وأما

النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

وانتهى إلى أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما ... وأن الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية ربما كانت أحق من غيرها بأن تدرس ويعنى بها الباحثون ، وما كان لأى إنسان يقدر العلم وكرامته أن يغير التاريخ أو يظهر عصرًا من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه !

* * *

طرح هذه النظرية الجديدة التي اعتمدها في كتابة تاريخنا الأدبي ، ولم يلتفت إلى نقد القدامى من شيوخ الأدب ، ومضى يؤرخ بطريقته التحليلية ذلك العصر بمختلف ظواهره الأدبية والاجتماعية والسياسية . . وقد جمعت هذه الفصول فيما بعد في كتاب أسماه « حديث الأربعاء » ، وهو في ثلاثة أجزاء ضم بحوثًا طلية مبتكرة عن شعراء العصر الجاهلي . وشعراء العصرين الأموي والعباسي ، ولا سيما الشعراء

الغزلين ، مع بحوث عن بعض الأدباء والشعراء المعاصرين .
وقد صبّ الدكتور طه في هذه الفصول الكثير من آرائه
الجريئة في طبيعة الأدب العربي ففتح للأدباء الباحثين منافذ
جديدة كانت موصدة . . ولا أسرف إذا قلت إن منهجه هو
المنهج الذي اتبعه الأدباء في دراساتهم الأدبية وما زالوا لا في
مصر وحدها بل في جميع البلاد العربية .

* * *

وقد كان للقراء من محصول مقالاته التي كان ينشرها على
صفحات « السياسة » يوم الأحد كتاب « قصص تمثيلية » ..
وقد عمد في عرض هذه القصص إلى التلخيص . . وطريقته
في التلخيص أن يغوص إلى أعماق الفكرة التي أرادها الكاتب
من قصته . فبعد أن يهضمها هضمًا جيدًا يناقشها مناقشة
أدبية مثيرة . ثم يعرض خطوطها البارزة ونقاطها الدقيقة
وصورها المتباينة ورأى النقاد فيها حتى إذا تملّى القارئ الفكرة
ساق إليه مشاهد الرواية وفصولها وما يزال حتى يكشف روح
الكاتب وفكرته وسخريته وفلسفته وما شئت من عوالم فياضة
بحيث لا ينتهي القارئ من تلاوتها إلا وقد اكتسب متعة وفائدة
معاً . وقد قدم للقارئ العربي أكثر من كتاب ضمّ هذه
التلخيصات ، وقد نعود إليها في صدر كلامنا عن ثبت مؤلفاته .

نحن في عام ١٩٢٥ وقد أصبحت لطفه حسين مكانته الكبرى ، وأصبحت دور النشر ومختلف المعاهد تتهافت على مقالاته وكتبه ومحاضراته . وهو كالفيض يمدّ الجميع بسيل من معين عبقريته ، أو كالزر الكهربائي - وهذا التعبير للدكتور هيكل ، وقد سمعته منه في إحدى الجلسات الأدبية - لا تكاد تضغط عليه حتى يشع إشعاعه الباهر . نعم ، هو كالفيض وما أشبهه بصنوه أبي العلاء المعرى الذى كان يملئ الآيات البيّنات دون أن يرجع إلى النصوص والكتب . وهذا الذى أثار دهشة ابن القارح حين أعلن فرط إعجابه ودهشته بما سمعه من رسائله وبدائعها التى أملاها بلا توقف ، وهى - فيما يرى - تستكثر على من يكتب ، بله من يملئ ، وهى لو صدرت - كما يقول ابن القارح - عن رجل عازق فى خزائن كتبه ومراجعته يقلب فى هذا ويرجع إلى هذا لكانت آية معجزة ، لأن القلم لسان اليد ، وأحد البلاغتين كما يقولون ، فكيف بمن يبتكر

روائعها ويمليها ويحل مستغلقها بديها ، ويدع آياتها ارتجالا ،
ويمليها من فوره مقالا !

قال : « ووالله لقد رأيت علماء منهم ابن خالويه إذا
قرئت عليهم الكتب ، ولا سيما الأسفار الضخمة منها ،
أقبلوا على مراجعهم يلوذون بها مستعصمين ، ويرجعون إليها
مقابلين ، احترازاً من الوقوع في خطأ مبعثه النسيان أو تصحيف
ناسخ أو غلط واهم ، ولا كذلك أبو العلاء ، فهو يستلهم
أبدأً جناحه المتثبت اليقظ ، ويستعين دائماً بحافظته الواعية ،
وذاكرته الجبارة التي لا تعرف الوهن ، ولا يسمو بها النسيان » .
وطه حسين كصنوه أبي العلاء في هذا المضمار . . إنه
كالفيز . . وقد كان إلى كتابته المستمرة في الصحف
والمجلات ، وإلى إصداره الكتب ، يتابع دروسه في الجامعة ،
وقد كثر عدد تلامذته وقويت أركان مدرسته .

وتمرّ بمصر أزمات مختلفة—أزمات سياسية حادة ، وللدكتور
طه رأيه الصريح في هذه الأزمات . . ولكنه كرجل جامعي
كان يعتصم بصمته ويعمد أن يظل في معزل عن هذه
التيارات . . لا يعلن رأيه إلا في شئون الفكر وقضايا الأدب ،
وتقتضيه الدراسة الجامعية أن يعرض إلى الشعر الجاهلي . .
وطريقته في البحث تختلف ، كما أشرنا ، كل الاختلاف

عن طرائق من سبقه من أساتذة الأدب ، ولا سيما أنه عاش
 هذه الفترة اليقظة من حياته الفكرية في محيط جامعي . .
 ومن تقاليد الجامعات أن تأخذ البحوث الأدبية والدراسات
 العلمية طابع البحث الحر . . وسار في نهجه يدرس النصوص
 ويبحثها دراسة ناقد بصير . **✕** ونهجه في البحث الأدبي أن
 يكون العقل العربي متحرراً من كل الرواسب والعفونات . .
 وأن يصل ببحوثه إلى نتائج يقرها العقل ويرضى عنها الفكر
 المتحرر . **✕** وأثمرت هذه الدروس كتابه « في الشعر الجاهلي » .
 وشاع أمر هذا الكتاب - شاع ما فيه من آراء اعتبرت
 منافية لروح الدين . . واستغل خصوم طه - وما أكثر
 خصوم الموهوبين - استغلوا ما جاء في الكتاب من آراء
 عدوها زندقة وهرطقة ! . . استغلته الحزبية ، واستغله
 الرجعيون . . وثارت مصر على طه حسين ، وانقسم الناس
 فريقين : فريقاً معه ، وهم صفوة المفكرين ؛ وفريقاً عليه
 وهم الكثرة المطلقة من مختلف الطبقات . . وقد ترعم هذه
 الحركة حماة الدين أو علماء الجامع الأزهر ، فاجتمعوا وقرروا -
 وأكثرهم لم يقرأ الكتاب - قرروا أن في كتاب الدكتور طه
 كفراً صريحاً ، وطالبوا الحكومة بمصادرته ومنع مؤلفه عن
 التدريس كيلا يفتن نابتة الأمة بما يشه فيها من أضاليل !

وماذا فى الكتاب ؟

إننا لانريد أن نعيد سرد تلك القصة الطويلة ، ذات الذيل المعقدة التى أثارها خصوم طه حسين - خصومه الحزبيون الذين اختبأوا وراء الرجعيين من رجال الدين ! .. لا . . لانريد أن نسرد تلك القصة الطويلة التى تمس حرية الفكر فى الصميم . . ولكن الأمانة التاريخية تقتضينا ، ونحن نشير إلى ملامح من حياته الفكرية ، أن نمر بجوتلك العاصفة ، لأن فى عدم التعرض لهذه الأزمة الحادة ما يترك فجوة كبيرة فى حياته الأدبية .

* * *

حين بدأ الدكتور طه دراسته الأدبية فى الجامعة المصرية ، أراد أن يؤرخ الأدب العربى تأريخاً جديداً ، أى أراد أن يبدأ من الأساس ، وأن ينسف جذور تلك الطرق المعوجة التى اعتمدها من سبقه من مدرسى الأدب . . ويبدأ بالشعر الجاهلى ؛ وما كاد يتوغل بدراسة هذا الشعر حتى شك فى قيمته . وكان هذا الشك نتيجة بحث طويل وتفكير عميق وقراءة مستمرة وتدبر فى ألفاظه ومعانيه ، وما زال يقرأ ويحفظ ويقايس ويخرج الأصيل من الدخيل حتى انتهى به البحث إلى أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من

الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور
 الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميوهم وأهواءهم
 أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأن ما بقي من الشعر
 الجاهلي الصحيح هو عنده قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل
 على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة
 الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي . وأن أكثر ما نقرأه
 من شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس
 من هؤلاء في شيء وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق
 الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع
 المفسرين والمحدثين والمتكلمين .

عرض هذه النظرية ثم أخذ يسوق الحجة تلو الحجة
 من النواحي التاريخية واللغوية والفنية ليؤكد نظريته التي تنتهي
 به إلى أن هذا الشعر لا يمكن أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن
 يظهر القرآن .

وقد درس موضوعه بهذا النهج الفلسفي الذي استحدثه
 ديكارت ، أي أراد أن يشك ليصل إلى اليقين ، وقادته هذه
 الشكوك إلى أن يحطم كل الأسانيد التي لا يقبلها منطق العلم
 الحديث .

وما كان البحث بذاته ، ليشير هذه الضجة الكبرى لو لم

يستغل خصومه جملة جاءت استطراداً في صلب البحث الذي عقده عن الشعر العربي واللغة ، وعن القحطانية والعدنانية . والعرب البائدة والمستعربة ، والخلاف الجوهري بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . وقد ساق أكثر من حجة على صدق نظريته التي انتهت به إلى أن هذا الشعر الذي يسمونه « الجاهلي » لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأنه وجد بين الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي قوماً ينتسبون إلى عرب اليمن — إلى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم لغة غير القرآن والتي أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية . . وإلى هنا . . فلا شيء يؤخذ عليه ، إلا أنه في استطراده قال :

« إنه لا يكفي ، لكي نثبت من الوجهة العلمية وجود إبراهيم وابنه في التاريخ أن يكون اسمهما قد ذكرا في التوراة والقرآن » . .

هذه الجملة وغيرها مما اقتضاه سياق البحث قد أثارت عليه نائرة الأزهرين . . وقد رد على خصومه بأن قوله هذا لا يعني أن إبراهيم لم يوجد قط كما نسب إليه القول كثيرون ممن لم يقرعوا كتابه . .

ولا أريد هنا أن آتى بالآراء التي جاءت في صلب كتاب الدكتور طه ، ولا برود خصومه ، ففهمتي ، في هذه الرسالة ، أن أسجل ظاهرة من حياته الفكرية وما مر بها من ملاسبات . ويكفى أن أقول إن الكتاب أثار ضجة كبيرة حين نشره . . وإن المطابع ، قد أخرجت ، في السنة التالية لطبع الكتاب عشرات الكتب والرسائل في الرد عليه ودحض آرائه أظهرها كتاب « تحت راية القرآن » للمرحوم مصطفى صادق الرافعي . و « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفى جمعة . و « نقد الشعر الجاهلي » للعلامة محمد فريد وجدي و « نقض الشعر الجاهلي » للأستاذ محمد الخضر حسين . و « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي مع مقدمة طويلة للمرحوم الأمير شكيب أرسلان . . وما لا أذكره من الكتب والرسائل وأكثرها غير ذى بال . .

ولم تقف المعركة عند هذه الردود العلنية والأدبية بل دخلتها السياسة لتقف إلى جانب خصوم طه حسين ، وكان من جراء الحملة المنظمة عليه أن اضطرت ثورة شيوخ الأزهر ومن وراءهم البيئات الرجعية ، وخاف كبار المفكرين من زجالات مصر وأحرارها أن تنال الثورة من الجامعة المصرية وهي حديثة العهد بالميلاد . . لا سيما أنه لم يعض على إلحاقها بالحكومة المصرية

عام واحد . . . وعبثاً حاول طه حسين أن يفهم خصومه أن شكه بالشعر لا يعنى شكه بقداسة الدين . وقد أنكر ما اتهموه به من شك فى الدين الإسلامى ، فكتب إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . وكان من المنتظر أن تقف الحملة عند هذا الحد . . . وأن تحمد نيران تلك الثورة التى نفخ فى ضرامها خصوم طه حسين الذى حطم تماثيل أدبهم الكاذب . ولكن الرجعية - رجعية الفكر ورجعية السياسة - وجدت فى إثارة هذه المسألة معاكسة حزب كان الدكتور طه ينتمى إليه . . . وقامت أزمة وزارية ، ونشطت النيابة العامة بإيعاز من الحكومة وتحت ضغط الأزهر تحدد « جريمة » الدكتور طه حسين فى دين البلاد الرسمى . . .

ولم تجد الجامعة المصرية ولم يجد الدكتور طه بدءاً من جمع نسخ الكتاب منعاً لتداوله خشية أن تودى ثورة الرجعية والرأى العام بالجامعة . . .

* * *

شكت طه حسين على مفضض . . . فلم يرد على خصومه . . . وكان فى سكوته مضطراً خشية أن يكون نزوله للميدان والرد

على معارضيه سبباً يمهّد للرجعية أن تعبث بحرية الفكر
والتفكير . .

وكان ثروت باشا ، عضو مجلس إدارة الجامعة وأحد أقطاب
السياسة وثاني رجلين عرفتتهما مصر في تاريخها السياسي الحديث :
أريد بهما سعد وثروت — كان ثروت باشا قد طلب إلى الدكتور طه
أن يثبت للعاصفة حتى تمرّ بسلام ، وأن لا يجيب على خصومه
احتفاظاً بكرامة أستاذه للجامعة وكرامة العلم الذي يمثله ، وحتى
لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان وأمام الرأي العام .
ونزولا عند هذه الرغبة سكت على مضض . وظلت الصحف
الحزبية والرجعية مدة طويلة تهاجمه هجوماً عنيفاً وهو في ثورة من
الصمت الملتهم الذي كان يحرق نفسه ، وقد أطالت بعض
تلك الجرائد الكلام حتى أزعجت والد الدكتور طه ، فكان
يرسل إليه خطابات حزينة ينبع منها ، كما يقول زكى مبارك ،
الدمع في الصخر الجلمود .

ومن الرسائل التي بعث بها الدكتور طه إلى والده هذه
الرسالة الصغيرة بكلماتها والكبيرة بمغزاها ومدلولها :

أبي

أنت أوصيتني بأن لا أصدق كل ما أسمع ، وأنا أوصيك
بأن لا تصدق كل ما تقرأ .

لك من زوجتي ومنى أطيب التحيات .

طه حسين

وليس هذا فقط ، بل تلقى رسائل تهديد بقتله من بعض طغمة الرجعية فلم يعبأ بها .

وأخيراً . . . نزل عند رغبة أصدقائه وفي طليعتهم ثروت باشا وسافر إلى باريس ، إلى أن مرت العاصفة وخذت نارها بعد أن ذهبت بكتاب « في الشعر الجاهلي » ولكنها تركت لطله حسين شهرة لم يصل إليها كاتب معاصر من جميع كتاب العالم العربي .

* * *

على أن النقطة الحساسة التي عاجلها طه حسين في كتابه وأفادت الأدب العربي إفادة كبرى ليست شكّه في أكثرية الشعر الجاهلي ، ولا تعرضه لتلك النقطة الدينية الحساسة التي أقامت الدنيا عليه — دنيا الرجعية المتزمتة — بل هي التمهيد للحرية المطالقة أن تشيع في البحوث الأدبية ، فقد دعا أدباء العربية إلى التحرر من كل المواضع التي تقيدهم ، وطلب إليهم أن لا يتأثروا في بحوثهم بأي مؤثر إلا الحرية ، لأنه يعتقد اعتقاداً صادقاً أنه لن توجد العلوم اللغوية الأدبية ، ولن تستقيم فنون الأدب إلا يوم تتحلل اللغة والأدب من التقديس ويباح لنا أن نخضعها للبحث كما نخضع المادة لتجارب العلماء . وقد وضع نظريته

هذه للجيل الصاعد . وسار في طريقه يدرس الأدب العربي بهذا المنهج الذى هو منهج جميع الباحثين والمفكرين الأحرار . وطويت ضجة كتاب « فى الشعر الجاهلى » بعد أن حُذِفَ منه فصل ، وبعد أن زيدت عليه عدة فصول . . . وصدر باسم « الأدب الجاهلى » . وهو يدرس اليوم فى جميع مدارس البلاد العربية كأساس لفهم الأدب ، والأدب الجاهلى بصورة خاصة - هذا الأدب الذى رسم الدكتور طه خطوته الواضحة بهذا الكتاب العظيم الذى أصبح أشهر وأدق كتاب أدبى بين كتب الأدب العربية المعاصرة .

وليعذرني القارئ إذا رآنى تحدثت طويلا عن كتاب « فى الشعر الجاهلى » . فقد تحدثت عنه مطولا للملابسات التى رافقت صدوره . وهى ملابسات انبثق عنها هذا الصراع الحاد بين مذهبين : بين القديم والحديث ، أو بين القدماء الذين ينكرون مذهب التطور فى الحياة ، وبين المجددين الذين يؤمنون بحرية البحث وحرية الفكر .

من شئون حياتي الخاصة ، وما كان يحيط بها في أوائل هذا القرن الذي نعيش فيه . لقد تحدثت فيه عن الجامعة القديمة ، وعن سفرى إلى أوروبا . وهى ذكريات أحبها وأثرها . صنعت هذا الكتاب على أن مافيه تخيلات مما يخطر فى مخيلات الكتاب . والحقيقة أنه ليس فيه شئ من التخيل ، بل هو مجموعة من الحقائق ، ولكن الناس معجبون بكتاب ” الأيام ” لافى البلاد العربية فقط بل فى أوروبا أيضاً ، وقد تلقيت أمس عقداً لترجمته من ” النروج “ ، والناس معجبون أيضاً بكتاب ” على هامش السيرة “ وكتاب ” مستقبل الثقافة “ ... »

إن حياة الدكتور طه التي وددنا أن يؤرخها بقلمه تؤرخ
 نفسها بنفسها . . فهد برز إلى مسرح الحياة الفكرية واسمه
 بين أخذ ورد ، بين محب وقال ، بين معجب وكاره . .
 وقد كثر اللغط حوله ، في تلك الفترة من حياته . . وأى
 لغط ؟ لغط الحشو بين المتحججى العقول الذين كانوا ينالونه
 بمناسبة وبغير مناسبة . لقد أثار الأستاذ عبد الحميد سعيد
 في البرلمان — وكان رحمه الله وغفر له من أئمة الرجعية في مصر —
 أثار سنة ١٩٣٢ قضية كتاب « في الشعر الجاهلي » من
 جديد . . وكان على رأس الحكم إسماعيل صدقي باشا ،
 وكان وزير المعارف حلمى عيسى باشا ، ولم تكن الأمور
 بينه وبين الدكتور طه على ما يرام لاختلاف وجهات نظرهما
 في كثير من قضايا الفكر . . ومن جهة ثانية فقد كانت نزعة
 الدكتور طه السياسية تخالف نزعة الحكومة ، وأراد صدقي باشا
 أن يستخدم أدب الدكتور طه في دعم سياسة حكومته .
 وأغراه مبراتب ضخمة ليكتب المقال الرئيسى في جريدة
 « الاتحاد » لسان حال الحكومة . فأبى ورأى في ذلك

ما يتعارض وكرامته ونزعة السياسية . . وكان هذا الرفض من العوامل التي حدثت الحكومة أن تدفع نوابها الرجعيين أن يثيروا في البرلمان قضيتهم مرة ثانية ليؤسبوا عليه الرأي العام ! وقد دفعوا الأزهر من جديد ليسند الحكومة بهذا الاتجاه فنقلوا طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف ، ثم فصلوه من الوظيفة . . وهنا انقلبت الآية . . فوقف الرأي العام إلى جانبه ، ولا سيما حين علم أن سياسة الحكومة تريد أن تستخدم أدبه وقلمه في مقاصدها . . وكان لحرمان الجامعة ، وهو عميد الأدب العربي ، من علمه أثره في نفوس الطلاب ونفوس المفكرين على اختلاف وجهات نظرهم .

ومن الأمانة لتاريخ الفكر في مصر أن نثبت هنا فقرات من أحاديثه إلى الصحفيين الذين هرعوا إليه يسألونه رأيه في موقف صديق باشا الذي أراد بفصله من الجامعة ومن الوزارة أن يحمي الإسلام من هذا الملحد !

قال الدكتور طه من حديث طويل غاية في الطرافة والسخرية والجزء من صديق باشا ومن شيخ الأزهر معاً :

« . . على أني أريد أن أقف وقفة قصيرة جداً من شيخ الإسلام . . ومن حامى الإسلام . . فقد أصبح صديق باشا حامى الإسلام منذ فصل طه حسين من الحكومة . . أريد

أن أقف معهما وقفة قصيرة لأسألهما عن حماية الإسلام هذه ما هي ؟ وكيف تكون ؟ وماذا يبلغان منها بفصل طه حسين من خدمة الحكومة ! فهما لن يمنعا بهذا الفصل من أن يتكلم ، ولا من أن يكتب ، ولا من أن يكون له تلاميذ . . . ولا من أن يلتقي تلاميذه القدماء . . . وإذن . . . فما حمايتهما للإسلام . . . وكيف يفهمانها . . . وكيف يحققانها ؟ . . . أهمما يحميان الإسلام حقاً أم يرضيان شهوات خفية ؟

لقد قرأ صدقي باشا كتاب " الشعر الجاهلي " وكتاب " الأدب الجاهلي " وكان من المدافعين عنهما في الأزمات الماضية . وهو الذي سعى وألح في السعي لتعيين طه حسين عميداً لكلية الآداب . وسعى وألح في السعي حين كان رئيساً لهذه الوزارة . . . فما بال هذين الكتائين يروعان صدقي باشا . . . لقد أعلن صدقي باشا لطله حسين حين التقيا أخيراً أنه فوجئ باستجواب عبد الحميد سعيد ، وطلب إلى طه حسين أن يدع له أمر هذا الاستجواب السخيف . . . واستعمل هذا اللفظ . . . فكيف انقلب هذا الاستجواب قيماً بعد أن كان سخيفاً ؟ وكيف استحال صدقي باشا محامياً بعد أن كان منكرًا لهذا الاستجواب ؟ !

وقرأ شيخ الإسلام أو شيخ الجامع الأزهر هذين الكتائين

فيما يقول ، والله وحده يعلم ماذا فهم من هذين الكتائين وكيف فهم ؟ ولكنه على كل حال كان يلتقي طه حسين ويتلطف له . ويبارك عليه ، ويستشير في كثير من أشياء الأزهر ، فكان يضمن شيئاً ويظهر شيئاً . . أم هو يؤمن ببعض الكتاب دون بعض ؟

إن حماية الإسلام لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة . . وإنما تكون بتحويل نظم الحكم كلها - بتحريم الربا وإغلاق المصارف ، ومنع الحكومة من أن تستفيد من أموالها في البنك الأهلي وغيره من البنوك ، ومنعها من أن تبيع الخمر وتجيبي عليها الضرائب ، ولعلّ مرتب الأستاذ الأكبر أن يكون بعضه من هذا الربا أو من ضريبة المحرمات !

حماية الإسلام تكون بإغلاق دور الفحش والفسوق ، وتكون بأخذ رجال الدولة بأن يظهرُوا دائماً خضوعهم للإسلام وإذعانهم له ! .

ثم استطرد ، بعد أن سخر من رئيس الوزراء ، ومن شيخ الأزهر بأسلوبه الهازئ إلى رجاء حار . . قال : « أرجو أن ينسى رئيس الوزراء وشيخ الأزهر أنفسهما لحظة واحدة ، وأن يفكرا في أنهما ينجحان بلدهما ويسيان إليه بهذا العبث الكثير . . فنحن في القرن العشرين لا في

القرن الثاني عشر . . وكرامة الأمة يجب أن تكون أحب
إليهما وآثر عندهما من النكاية بفرد من الأفراد وإن كان
هذا الفرد طه حسين ! . . »

لقد أرادت حكومة صدقي سياستها الخرقاء أن تشوّه
سمعة بطل من أبطال الفكر ، أن تحرقه بنارها اللاهبة . .
ولكن طه حسين أذكى من أن يكون آلة بيد الأهواء
وأرفع من أن يلوث نفسه ويتحدر في الأغوار فعصم نفسه
وصان كرامته وخرج من المعركة التي أثارتها ضده الحكومة
ظافراً .

من الجامعة إلى الصحافة

لقد أصبح طه حسين بدون عمل ، وهو رجل لا يملك شيئاً . . فلا مزارع عنده ولا أطيان ولا أموال . . يعيش عيشة كريمة من راتبه ومما تدبجه يراعاته . وسرعان ما طلبت إليه جريدة « كوكب الشرق » لسان حال الوفد المصرى أن يقبل رئاسة تحريرها . . أى أن يقبل كتابة المقال الرئيسى . . ومعنى هذا أن الوفد المصرى أراد أن يضم هذا الرجل الكبير إلى حظيرته ليصاوم معه عهد الطغيان .. وكان طه حسين يود أن يظل فى صومعة الفكر - فى الجامعة - يدرس ويحاضر وينشئ جيلاً يؤمن بالحرية إيمانه المطلق بها . . ولكن الظروف العصيبة ، وموقف الحكومة منه اضطرتته أن يرثضى العمل فى الصحافة لأنها ستكون المنبر الحر للتعبير عن ميوله وآرائه واتجاهاته ، والصلة الوثقى بينه وبين قرائه وتلاميذه . . وأخيراً وليس آخراً ليقف وجهاً لوجه مع الحكومة التى وقفت منه هذا الموقف المزرى الذى يتنافى وكرامة الفكر وحرية الضمير . .

قبل العمل في جريدة « كوكب الشرق » كرئيس
لتحريرها . . وقد منحتّه أضحى راتب منح لكاتب . ومنذ
باشرة تحريرها ارتفع عدد المبيع ارتفاعاً لم تعرفه الصحافة
المصرية قبل ذلك اليوم ، وقد استقبل صاحب الجريدة
المرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض الدكتور طه حسين بمقال
في ستة أعمدة تحدث فيه عن عبقريته وإخلاصه لوطنه
ودفاعه عن الحريات : حرية الفكر وحرية الوطن . .
ومن كلماته عن صلة طه حسين بالصحافة قوله :

« . . لقد كان طه حسين في جميع مراحل حياته في
الصحافة التي كثيراً ما خدمها ، وكثيراً ما أحسن البلاء
فيها ، والإفادة لها . كان إلى جانب رسالته العلمية
والفكرية والأدبية ، لا ينشد من وراء كتاباته كلها إلا
ما يراه متفقاً والمصلحة الحقيقية بحافز صادق من إيمانه
الفياض المرسل كاسمه إرسالاً . والمنطلق بوجدانه الحى المترع
حساسية وشعوراً ، وب عاطفته النبيلة المعناة ، وحماسه المتقدمة
الحكيمة ، وكان في كل أطواره نعم العون ، ونعم المدافع
والنصير لجميع الحريات : حرية الفكر ، حرية الكتابة ،
حرية الاجتماع ، حرية الخطابة . .

ولا أنسى جلسات خاصة جلسناها معاً والمرحوم

ثروت باشا . كان صديقي ، يافعاً وشاباً ورجلاً ،
 الخصب الشريف في العرف الكتابي ، والمصري الوطني في
 التاريخ الواقعي ، مع سعة عطن ، وليانة جانب ، ومع
 عطف وحذب ، وضمير ووجدان ، ومع إخلاص صامت ،
 ومع حماسة جياشة ، ومع اتئاد في تدفق ، ومع حصافة
 في إضرام ، ومع إضرام في هدوء ، ومع هدوء في حياة ، ومع
 حياة في اتزان . . كل ذلك ورائده مصلحة الوطن في
 غير ضوضاء . . وشعاره : الجهر بالحق في غير خور
 ولا تردد . . وفي غير حذر ولا حيطة . . »

وإذ لبس الثوب الصحفي لم ينض عنه الثوب الجامعي
 فكان في مقالاته الثائرة هذا الكاتب الهادئ الذي يفلسف
 الأمور بروح منطقية . وبأسلوب هازئ ساخر . . وما
 يزال يهزأ ويسخر بخصمه حتى يرديه قتيلاً . . ولم يحاول
 قط ، في حياته الصحفية ، الانحدار إلى أسلوب المهاترة ،
 بل كان عفاً للسان ، شأنه في جميع خصوصاته ، وكان
 القارئ يخرج من تلاوة مقاله وكأنه يتلو قطعة من أدب
 الحياة .

السلامة

١٤

ظل في نضاله الصحفي مدة غير قصيرة ، ولكن لم يترك جوه الفكري ، فكان إنتاجه غير منقطع ، وصدر له في هذه السنة « ١٩٣٢ » كتاب « في الصيف » ، وهو مجموعة الرسائل التي كتبها من أوروبا . . وهو كتاب لا تحده هذه الفصول والأبواب التي تحد الكتب عادة . . فهو صورة حية لنفس قوية خصبة تتحدث عن الأدب والتجديد ، عن الأزهر وشيوخه وعلمه وطرق إصلاحه ، وعن هذه الصور الفنية الخالصة في التوراة والإنجيل والقرآن ، وعن كثير من صور الحزن والفرح ، والبؤس والمرح التي تزخر بها النفس ، ولقد أطل الحديث عن البحر وحياة السفر ، وعن باريس وما جد في باريس ، منذ تركها ، من صور جديدة . وما يروق الدكتور طه شيء ، كما يروقه الحديث عن باريس وترديد ماها في نفسه من ذكريات قديمة سواء حين كان طالباً أم حين يعاودها للمرة الثانية أو الثالثة أو العاشرة . . وقد رسم تأملاته بروح فلسفية منطلقة — تأملاته في الحياة والكون ، في مصر وأوروبا ، في الشرق والغرب . .

وقد أعطانا المثل الواضح بكتابه هذا على أنه ليس مؤرخاً أديباً فقط بل هو أديبٌ فنان من الطراز الأول . .

ونذهب غير واحد من كبار الأدباء ، بعد أن قرأوا « الأيام » و « في الصيف » إلى القول إن في طبيعة الدكتور طه هذه المزعة القصصية التي لا تتحدث عن شيء إلا استهوت قارئه وسحرته سحراً يسيطر على كل حاسة فيه ، وقد أشار المرحوم الأستاذ المازني إلى هذه المزعة بقوله :

« إن الدكتور طه قصصى بارع ، وأديب روائي من الطبقة الرفيعة ، وإنه خير للأدب المصرى في رأيي ، أن ينضو عنه برودة العلم ويتناول قلم القصص . وأحسبه يوافقني على أن كتابه « الأيام » سيقى على حين قد يبقى أو لا يبقى « حديث الأربعاء » أو « في الأدب الجاهلي » . وأرجو أن لا يرى في هذا انتقاصاً للكتابين ! » . .

ثم أردف الأستاذ المازني ، رحمه الله ، هذا برأى آخر فقال :

« وهل « ذكرى أبي العلاء » و « ابن خلدون » ، و « حديث الأربعاء » إلا قصص تمثيلية ؟ و « الأدب الجاهلي » بحث علمي حر . . ولكنه على هذا رواية ممتعة . . ولست أقول هذا اليوم فقط ، فقد قلته لما صدر كتابه « في

الشعر الجاهلي " وثار به الحمقى والدساسون والمشعوذون والحاقدون ! » .

والواقع ، أن كتابه « في الصيف » هو قصة رحلة ، وهو قصة ممتعة ، كتبها طه حسين وهو ممتور من الكثير من الأمور ، صور فيها هواجس نفسه من يوم ترك مصر إلى أن عاد إليها - تلك النفس الهائجة الثائرة ، المضطربة ، المغيظة مما يمثل على مسرح مصر من المآسي الحزينة ، ولم يمنعه وهو يرسم خلجات هذه النفس أن يذكر ماضيه القريب فيصور بعض حالاته ، ومن الصور الطريفة التي جاءت عرضاً في هذه الرسائل قوله : « كنت أراى حين تركت مصر لأول مرة شيخاً معممًا قد صعد إلى السفينة ، يتعثر في أذيال جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التي قضت به عاهته التي حالت بينه وبين الضوء . . فلم أكد صل إلى غرفتي حتى طارت العمة عن رأسي ، ولقد أريد أن أتذكر إلى أين فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . . كل ما أعرفه أنى خلعتها حين دخلت الغرفة . . ثم لست أدري إلى أى حال صارت . . ولو قد عثرت عليها لحفظتها تذكاراً باقياً . . ولوجدت شيئاً من الحنان والحزن والأمل

حين أخذ بين يدي ذلك الطربوش الكالح وتلك الخرقة
 التي ما أظن أنها كانت يومئذ ناصعة البياض . . وخلعت
 الجبة والقفطان وأنا أعلم إلى أين صارا . . منحهما أخى
 هدية لسيدة كان يألّفها في فرنسا . . ولست أدري ماذا
 اتخذت منهما . . خلعت الجبة وخلعت القفطان ودخلت
 في هذه الثياب الأوربية . . فكم ضقت بها وكم كرهتها
 وكم ندمت على جيتى وقمطانى طوال الأسبوع الذى قضيته
 على ظهر " أصبهان " رحمها الله . . فقد هوت " أصبهان "
 إلى قاع البحر وعبث الموج بأجزاءها كما عبث بأجزاء عمى
 فى أكبر الظن . .

بعد كتابه « في الصيف » صدر له كتاب « حافظ وشوقي » . . وهو دراسة شاملة عن شاعري مصر الكبيرين مع بحوث قيمة في الأدب الجديد وترجمات عن الشعارين الفرنسيين بودلير وسوالى برودوم ، وكلام عن الحرية والفن . . وتؤلف هذه البحوث والدراسات آراء الدكتور طه في مميزات الأدب الجديد . . وقد أطلق رأيه صريحاً ، كعادته ، في حافظ وشوقي ، فحافظ عنده مقلد صريح التقليد وشوقي مجدد ملتوي التجديد . . هكذا ابتدأ حياتهما الشعرية . . ثم يمضى الزمن على حافظ وشوقي فإذا تقليد حافظ يستحيل لا إلى تجديد بل إلى نضج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . . وإذا بتجديد شوقي يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء . . لا يتستر فيه ولا يختاط ، ينشئ القصيدة فلا نحتاج إلى تعب أو مشقة لنجد القصيدة التي يحاكيها . . وينتهي الدكتور طه من آرائه في الشاعرين

إلى أن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله ، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان — لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا ، أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه إلى المعاني ، وأبرع منه في تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد في الألفاظ والصور . وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضاً ، وينتهى إلى « أن لشوقي فنوناً لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها ، فشوقي شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقي شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقي منشئ الشعر التمثيلي في اللغة العربية ، يلتقي الرجلان في كثير ، ويفترق الرجلان في كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً في إقامة مجدنا الحديث » .

قيمة هذا الكتاب أنه يضم آراء جريئة في التيارات الأدبية المعاصرة .

وقد كان طه حسين ، خلال هذه الفترات التي مرت من حياته ، ولا يزال مثال المفكر الحر ، والأديب العظيم الذى يريد أن يرقى بالأدب العربى إلى المكانة التي تحتلها آداب الأمم الحية . . وقد كتب عدة محاولات فى شتى فنون الأدب واتجاهاته فكان خير مثال يحتذى .

وإن الدكتور طه ، كما أشرت فى بدء كلامى ، صاحب مدرسة ومنهج ، ومدرسته التي تقوم على الهدم والبناء ، هي التي يحتذيها الأدباء المجددون فى الشرق العربى ، وهو إلى نزعاته التجديدية الصريحة ، كثير الالتفات إلى الماضى — أى إلى الأدب العربى القديم ، يتخذة أصفى مادة للدرس والبحث ، وقد أبرز صوره الحميلة بأسلوبه الأخاذ فاستطاع أن يحبيه إلى الكثيرين حتى الذين أنكروا قيمته . . ولم تقف مباحثه فى تاريخ الأدب العربى القديم عند هذه الدراسات الأدبية الجافة بل أحب أن يقدم إلى قراء العربية صوراً رائعة من الأساطير العربية التي لا تقل فى روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية ، فكان لنا كتابه « على هامش السيرة » ، وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم ، بل هو صور رائعة قوية

كانت مدفونة في بطون كتب السيرة فجلاها بأسلوبه الأخاذ وإذا
هي آيات من الأدب الأسطوري الجميل . قد عرض هذه
الأحداث الجسام التي سبقت ولادة النبي محمد ، فتحدث ،
بنزعة قصصية رائعة ، عن قریش وتبع ، عن الحجاز واليمن
عن بلاد الحبشة وما جاورها ، وقد ربط بين هذه القصص
وبعض الأساطير القديمة ، بين نشأة اليهودية واصطدامها بالوثنية
ونشأة المسيحية واصطدامها بالوثنية واليهودية معاً . . وانتهى من
هذه القصص والحركات التي رافقت الديانتين إلى ولادة الإسلام
بعد أن صور بلاد العرب وعاداتها ورجالاتها وطبيعتها وقصصها
ونشأة أديانها بأسلوب غاية في الدقة ، واستطاع أن يضمني على
التاريخ لوناً من طلاوة الأدب وفتح باب المثلوجيا الإسلامية
على مصراعيه . وقد أقبل على قراءة هذا الكتاب ، غير أولئك
الذين آمنوا بعنصرية طه حسين ، جميع الذين أنكروا عليه
أدبه . وحتى المعتمدين وأنصار القديم الذين اتهموه في دينه ،
وقد رأوه في كتابه هذا يصور الإسلام بسماحته وبطولة شخصياته
تصويراً تعجز أقلامهم عن بلوغ بعض ما بلغه زعيم التجديد
الذي رسم هذه الصور بنزعة المؤرخ القاص وروح الأديب
الشاعر الذي تستهويه الصورة الجميلة فيضمني عليها حسه
ومشاعره وفنه وأدبه .

١٧

ثم تتابع كتب الدكتور طه ، وكان لا يمر عام إلا ويصدر له كتاب أو كتابان . بعضها مقالات ودراسات ورسائل كتبت سابقاً فجمعت في كتاب ، وبعضها ألف تأليفاً مستقلاً . ومن المقالات والدراسات المجموعة كتابه « من بعيد » و « من حديث الشعر والنثر » . ويريد بكتابه « من بعيد » هذه المقالات والرسائل التي كتبت من باريس ، ومن أقصى الغرب الفرنسي ومن بلجيكا وقيسنا .

والسفر في نفس الدكتور طه عوامله الغريبة ، فلا يكاد يترك مصر ومشاكلها حتى تنطلق نفسه بأراء وخواطر حرة كانت تحول بعض العوامل دون كتابتها في مصر ، وقد أشار إلى هذا بقوله :

« إن النأي عن الدار ، والتنقل في أقطار الغربه يثيران في نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الإقامة والاستقرار ، ويهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير والتعبير ، لا تستقيم له حين يكون مستقيماً مستقراً في داره بين أهله ومواطنيه » .

وقد ضمّ كتابه هذا فصولاً رائعة عن حياة باريس ولوهما ،
 عن سارة برنار وتمثيلها ، عن حياة البحر والسفر ، عن الشك
 واليقين ، عن الكثير مما له صلة بحياة الفكر ونزعات التطور .
 على أن أهم ما تضمنه هذا الكتاب بحثه الرائع « بين العلم
 والدين » وهو البحث الذى كتبه على أثر الضجة التى قامت
 حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، أى أن الدكتور طه لم يشأ
 أن يدخل مع خصومه فى مهاترات بعيدة عن روح البحث
 فكتب قصة النضال بين العلم والدين منذ عهد الإغريق إلى
 يومنا هذا . وضاعت صحف مصر آنئذ بهذا البحث فلم تستطع
 نشره أو لم تسمح السلطات الرجعية بنشره فرحبت به حلب
 ونشر فى مجلة « الحديث » .

ومن البحوث ذات الصلة بتاريخ الفكر والتى تضمنها
 كتاب « من بعيد » فصل عنوانه « ديكارت » لم يقصد فيه
 كتابة سيرة ديكارت بقدر ما أراد أن يوضح مذهب الشك واليقين
 بروح من الهزء والسخرية - الهزء الصارخ من شيوخ الأدب
 القديم ومن أئمة الرجعية فى مصر . . فبرز ، بهذا الفصل ،
 الجاحظ فى سخرياته ولم ينأ عن روح قولتير .

والكتاب بمجموعه صفحات قوية عن حرية الفكر ، جمع
 بين أدب الرحلة وأدب الفكرة ، وقد تطوف مع طه حسين دنيا

الغرب فلا تشعر إلا بالمتعة والبهجة والسرور لأنه يتحدثك حديث النفس وحديث الفكر الممتلىء بأصفى ما وعته دنيا الفلسفة ودنيا الحقيقة .

* * *

٥٥ أما كتابه « من حديث الشعر والنثر » فقد جمع فيه المحاضرات التي ألقاها في مختلف الظروف والمناسبات الأدبية ، وهي تعلن عن رأيه الصريح في قيمة أدبنا القديم خلافاً لما يأخذه عليه المتحذلقون الذين كانوا يتهمون زعيم التجديد الأدبي بأن تجديده يقوم على إنكار القديم بالمرة .. وهذا جهل وضلال .. وما أعرف أديباً معاصراً دعم الأدب العربي القديم وحببه إلى النشرء الحديد كالدكتور طه ، فمن مقارناته اللطيفة بين الأدب العربي والآداب العالمية قوله :

« إن النهضة الأولى التي ظهرت في القرن الثاني عشر في أوروبا إنما هي نتيجة اتصال أوروبا بالعرب . فأدبنا هو الذي أحيا العقل الأوربي حتى جاءت النهضة الثانية التي اتصل فيها الأدب الأوربي بالأدب اليوناني القديم ، فلو لم يكن للأدب العربي إلا أنه قد حمل لواء الأدب الإنساني والعقل الإنساني في عشرة قرون لكان هذا كافياً للاعتراف بأن هذا الأدب من الآداب التي تعتر بنفسها وتستطيع أن تثبت لصروف الزمن .. »

ولا مجال لأن نسهب في عرض نظريته فللقارئ أن يرجع إليها في مظانها ، ولا شك أن لهذا الرأي قيمته ، لصدوره عن رجل جامعي ، وأديب فذ قد وسع ذهنه الآداب العالمية قديمها وحديثها وهو إذ يقارن تبدو مقارنة، حكماً مبرماً .

إن كتاب « من حديث الشعر والنثر » يتضمن محاضرات قيمة عن النثر العربي في القرنين الثاني والثالث الهجري ، وعن الحياة الأدبية في القرن الثالث ، ودراسات شاملة عن أبي تمام والبحرئى وابن الرومى تغنى عن الكثير من المطولات ، لأنها زبدة آرائه فى الشعراء وفى الحياة الأدبية لذلك العصر .

١٨

وكما قلت آنفا ، وكما أشار هوأكثر من مرة ، إن رحلاته إلى الغرب ذات تأثير في إنتاجه الأدبي . فلا يكاد يسافر ، ويخلد إلى الراحة حتى يفكر بإملاء موضوع جديد .. وطه حسين لا يشكو إلا ضيق الوقت ، فلو تحرر من هذه المشاكل التي تواجهه كرجل مرموق في عالم الأدب وانصرف إلى الإنتاج الأدبي الخالص لكان للعربية منه في كل شهر كتاب من أمتع كتب الفكر والأدب . . ولكنه أعطى الحياة العامة جزءاً غير قليل من نشاطه فطغت على وقته الذي كنا نريده للإنتاج الفني الخالص . . ولكن الإنسان مسير غير مخير . . وهكذا ، فقد قضت الظروف أن ترتبط حياة طه حسين بشقى التيارات فلا ينصرف كأبي العلاء الانصراف المطلق إلى الأدب ، وقد يكون هذا التمسك لوناً من الخجل ، لأن الرجل المفكر ابن بيئته ، وحياته مرتبطة بما تفرضه عليه الحياة — حياة وطنه من قيود وأعباء .

* * *

كانت الرحلة إلى فرنسا سنة ١٩٣٦ من العوامل التي دفعته

أن يكتب ، في جبال الألب حياة المتنبي - مالى الدنيا وشاغل الناس - وقد كتب عن المتنبي ، بمناسبة ذكره الألفية ، الكثير من المباحث والرسائل والكتب .. ولكن نظرة طه حسين إلى المتنبي تختلف عن نظرة الكثيرين ، إنه لا يحب المتنبي كما يحب غيره من الشعراء .. ومع ذلك فقد صحب ديوان المتنبي معه إلى جبال الألب - صحبه ليقراً بعض قصائده هناك ، وكأني بطه حسين أراد أن يصنّي علاقته مع هذا الشاعر العظيم .. أصبح أنه يكرهه ؟ لا أظن .. وإلا لما شغل به هذا الاشتغال المضني في فترة استجمامه والتي أنتجت كتاباً في جزأين بلغت صفحاته السبعائة صفحة ونيفاً عرض فيها إلى حياة المتنبي وعصره وعوامل طموحه وصراعه مع الأمراء والملوك وتحليل دقيق للكثير من قصائده . وما أظن أن أديباً استطاع أن يرسم هذه الظلال من حياة المتنبي كما رسمها طه حسين . أيدل هذا على أنه يكرهه ؟ ويأبى الدكتور طه إلا أن يؤكد الكراهية . كرهه لشخصه لا لأدبه بهذه الكلمات التي جاءت عرضاً في سياق بحث من بحوثه :

» ... إلى هذه الحال انتهى المتنبي حين فارق سيف الدولة وألقى بنفسه بين يدي سيده الجديد كافور .. جحد ماضيه كله ، ورفض آراءه كلها ، ونزل حتى عما كان

خليقاً أن يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء ،
 ولا تقل إنه كان محتاجاً إلى هذه الدلة ، مضطراً إلى هذا
 الهوان ، عاجزاً عن أن يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة
 للفن ، فلم يكن المتنبي في ذلك الوقت بائساً ولا فقيراً ،
 بل كان بعيداً كل البعد عن البؤس والفقر ؛ أخذ من سيف
 الدولة مالا كثيراً ، ولم يسرف في هذا المال .. بل أسرف في
 حسن تدبيره وشدة القيام عليه حتى انتهى إلى البخل القبيح ،
 وخرج من ملك الحمداني يسوق بين يديه مالا ضخماً ويحيط
 به عدد ضخم من الرقيق ، فلو شاء أن يعيش حرّاً كريماً
 مستقلاً لما وجد في ذلك مشقة ولا جهداً . وقد يقال إن حياة الشعراء
 في ذلك العصر لم تسمح لهم بهذا اللون من الحياة ، وقد يقال أيضاً :
 إن شاعرنا لم يكن يستطيع أن يعرض عن مدح الأمراء والملوك
 ولو حاول ذلك لعرضوه للأذى ولأكرهوه عليه إكراهاً — قد
 يقال هذا كله ولكنه لا يغني عن المتنبي شيئاً ولا يزيد على
 أن يؤكد ما نذهب إليه من أن المتنبي كان شاعراً كغيره
 من الشعراء ، ورجلاً كغيره من الناس . قد رفع نفسه فوق
 قدرها ، وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغي
 لمثله أن يطمع فيه ... ظن نفسه حرّاً ، ولم يكن إلا عبداً
 للمال ، وظن نفسه أيباً ، ولم يكن إلا ذليلاً للسلطان ،

وظن نفسه صاحب رأي ومذهب ، ولم يكن إلا صاحب
تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس
أمراً وأهونهم شأنًا .

وقد جاء بعد المتنبى رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا
وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة ، واحتقر الناس وازدراهم ،
وأبكر الملوك والأمراء . وزهد في التقرب إليهم والدنو منهم ،
وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر الكريم ، ولعقله أن
يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف . فوفى لنفسه وعقله بكل
ما أراد ، ولم يكن أقل شاعرية من المتنبى ، ولم تسعده
الأيام كما أسعدت المتنبى ، فقد حرمته بصره ، ولم تتح له
من الغنى والثروة ما يكفل له الحياة وخفض العيش . . ومع
ذلك عاش كريماً ومات كريماً ، ولم يتعلق عليه أحد بذلة ،
ولم يغمز فيه أحد هفوة ، وسخر من الزمان ولم يسخر منه
الزمان ، واستطال على السلطان وعجز السلطان أن يستطيل
عليه . وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يخلّوا بينه
وبين حريته ، وأن لا يشركوه فيما يعرض لهم من خير ولا شر . .
وأن لا يخرجوه معهم إن خرجوا من المدينة فارين أمام الروم ،
وأن يقيموا في المدينة إن أمنوا ويطعنوا عنها إن خافوا ،
ويتركوه فيها على كل حال ، لأنه رفع نفسه فوق الأمن

والخوف جميعاً ، وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذى أتحدث عنه وهو أبو العلاء .

فالفرق إذن بين هذين الرجلين ، هو الفرق بين الفيلسوف والرجل من سائر الناس . والذى أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل هو أن المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم ، ولكن الغريب أن المتنبي لم يخدع نفسه وحدها ، وإنما خدع معها كثيراً من الناس ، فظنوا به الحرية والكرامة وإباء الضمير .. وليس هو من هذا كله فى شيء .. إنما هو رجل من أهل زمانه لم يتميز منهم بأخلاقه ، وإنما امتاز منهم بلسانه ؛ كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء .. »

على أن هذا الكره ، أو هذا الرأى الذى أبداه طه حسين فى خلق المتنبي وفى شخصيته لم يمنعه أن يغوص إلى شعره الوثيق الصلة بحياته ، وبمن اتصل بهم ، يدرسه ويدرس عوامل اتصاله بهم دراسة مفصلة وينتهى - بعد أن يعرض جميع مراحل حياته - إلى رأى غريب يطرحه بكثير من الحرية ، وهو أن ديوان المتنبي إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي لا أكثر ولا أقل ، كما أن كتابه هذا - مع المتنبي - إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من

حياة طه حسين لا أكثر ولا أقل !
وبالرغم من هذا الالتواء الذي أراده الدكتور طه ،
فالكاتب هو - في رأيي - أوفى دراسة لحياة المتنبي من شعره
الذي قاله في شتى المناسبات منذ فجر صباه إلى آخر لحظة
من لحظات حياته . .

وقد أتعبه هذا الكتاب ، ولم يذق خلال أشهر الصيف
طعم الراحة ، ولاحظت عليه زوجه أثر هذا التعب فكانت
تحاول أن تصرفه عن الكتابة . . ولكن أنى لها ذلك . . فقد
عاش جسمه في جبال الألب . . ولكن فكره في بغداد
وحلب وأنطاكية ومصر وأرجان . مع المتنبي وابن عمار وأبي العشائر
وسيف الدولة وكافور وعضد الدولة . . . لقد تابعه في كل لحظة
من لحظات حياته وما زال حتى انتهى من تأليف هذا
الكتاب . . وما كاد يفرغ منه حتى التفت إلى زوجه يهديها
ثمرة جهده بهذه الكلمة الكبيرة التي تعبر أصدق تعبير عما
يحملة لهذه السيدة الحنون من حب وما تحمله هي له من
عطف وحب :

« . . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً
لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك
لآيات لقوم يتفكرون .

صدق الله أيتها الزوج الكريمة ، وتمت كلمته ، ففي
 ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفي ذرى هذه
 الرحمة أملت هذه الفصول ، وإن قلبي ليملؤه البر ويغمره
 الحنان حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه ، أثناء ذلك ،
 من حثلى على الراحة ، ورغبة إلى فى الترويض ، وإلحاح
 على فى الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة فى جبال
 الألب ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض ..
 وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والإشفاق .
 وإنى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسياً جافياً .. ولكنى أعلم أنى
 مدين لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب فأذنى لى فى أن
 أقدمه إليك لعله ينسبك من ذلك ما لا تزالين تذكرين» .

* * *

وإن دللنا هذا الإهداء على شىء فعلى الجهد الذى أرقق
 به نفسه فى سبيل المتنبى الذى أحبه وكرهه .. وكان نتيجة
 هذا الحب والكره المزدوج كتابه العظيم عن ذلك الشاعر
 العظيم !

مرت سنة ١٩٣٦ في جد وكند ، ولم يستطع أن ينعم
 بروائع الطبيعة في ظلال الألب ، ولم تيسر له الراحة التي
 ينشدها المصطفون . . وعاد من أوربا إلى مصر يتابع نشاطه
 الذهني ويستقبل الحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة
 حتى ضعف جسمه وانهدت قواه . ويؤكد في إحدى رسائله
 أن أعصابه قد اضطربت فأصبح سريع الغضب ، سريع الرضا
 وسريع الانفعال بوجه عام ، ولم يربداً ، بعد أن مرت فصول
 السنة الدراسية ، من أن يسافر إلى أوربا فركب البحر إلى
 فرنسا . ومرتباريس مروراً سريعاً في طريقه إلى قرية نائية
 منزوية في أعلى جبال الألب . ففضى الصيف في قرية
 « سالنش » . وقد صمم هذه المرة أن يعيش حياة المصطافين
 وأن يطلق عالم الصحف والكتب ، وأن يقضى أيامه في ظلال
 الطبيعة يستجم . . وتشاء الصدفة أن يصطاف توفيق الحكيم
 في تلك القرية الجميلة ، وكان لابد من اجتماع الأدبيين
 العظمين في تلك المرتفعات - وكلاهما قد تزود بالثقافة
 الفرنسية - وكان لابد من أن تترك هذه الزيارة أثرها في

نفسيهما . . وقد كان ذلك . . ورأيا أن يستلهما « شهر زاد »
 صفة توفيق الحكيم . . وأن يتبادلا رسائل أدبية يعبران فيها
 عن الكثير من آرائهما في الأدب والحياة . وأن يكشف كل
 واحد منهما . أمام شهر زاد ، مبادئ صاحبه في أسلوب باريسي
 غاية في الرقة والظرف .

وقد أنتجت هذه الرسائل كتاباً لم ينل الحظوة الكبرى لدى
 جمهور القراء وإن نزل من نفوس الأدباء منزلة كريمة ، أريد به
 « القصر المسحور » — قصر شهر زاد التي تركت هجير بغداد
 لتلاحق بالأديبين في ذرى الألب فكانت طرفاً ثالثاً في هذه
 الرسائل بين طه والحكيم اللذين لم يكادا يفرغان من الكتاب حتى
 أهدياه إلى تلك المرأة التي كانت تشيع ذهابهما إلى القصر المسحور
 وتتلقى عودتهما منه بنظرات حائرة وبسمات ساحرة ، فيها الرحمة
 والإشفاق والتشجيع لأنها تعرف كيف تحيي زهرات الأدب
 وتبعث نشاط الأدباء — إلى مدام طه حسين .

إن طه حسين كأديب جامعي ، رافقت حياته جميع مراحل التعليم في كافة فتراته ، كمواطن حر يريد لمصر أن تخطو خطوات سريعة في ميادين العلم والمعرفة ، آلمه أن لا يكون لمصر برنامج علمي عملي ، تجارى فيه الأمم الحية في نظمها التعليمية وطرق دراساتها الحرة . . وقد أراد أن يضع لمصر هذا البرنامج العملي فكان كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » . وهو كتاب في جزأين بلغت صفحاتهما الخمسمائة صفحة تقريباً .

ومن حظ الحياة الفكرية في مصر ، والحياة الثقافية بصورة أعم ، أن يؤرخ أحداثها هذا المعلم الحكيم . . ومن حظ قراء العربية أن يقرءوا هذه الفصول التي كتبها زعيم التجديد في مصر ، وقد عاش طوال حياته في الجو المدرسي المنطلق . والواقع أن النهضة الفكرية في البلدان العربية ترتبط أوثق رباط بالنهضة الفكرية في وادي النيل . وكتاب « مستقبل الثقافة في مصر »

تصوير دقيق للكثير من مشاكل الثقافة في الشرق العربي ، ولأطوار التفكير وأطوار التعليم في اتجاهاتها المختلفة . وهذا ما عارض إليه الدكتور طه بكثير من التوسع ، وبكثير من الوعي والمعرفة ،

وخرج من بحوثه بخطط ونظريات جريئة لقلب أكثر أوضاع
التعليم تمهيداً لخلق جيل جديد يجارى التيارات الحديثة في
تطوراتها المتدافعة .

كتب كتابه هذا في ذرى جبال الألب بين سنتي ١٩٣٧
و ١٩٣٨ ، وكانت أقصى آمانياته ، بعد أن رسم هذا البرنامج
الطويل الذى ينقل مصر العزيزة من الظلمة إلى النور - كانت
أقصى آمانياته أن يتحقق الحلم الذى تراءى له وهو يخطط سطور
كتابه . . وما هذا الحلم ؟
هو تحرر مصر من الظلمة والفقر والجهل .

فهو فرح إلى أقصى غايات الفرح ، مبتهج إلى أبعد حدود
الابتهاج ، سعيد إلى أرقى درجات السعادة . فقد رأى ، في
حلمه ، شجرة الثقافة المصرية باسقة ، قد ثبتت أصولها في أرض
مصر ، وارتفعت فروعها في سماء مصر ، وامتدت أغصانها في
كل وجه ، فأظلت ما حول مصر من البلاد ، وحملت إلى أهلها
ثمرات جلوة ، فيها ذكاء للقلوب وغذاء للعقول . وقوة للأرواح . .
وهم يسعون في هدوء واطمئنان وثقة إلى هذه الغصون النضرة
الوارفة ، فيستمتعون بمنظرها ، ويأوون إلى ظلها ويستمتعون
بشمراتها المتشابهة لأنها تصدر عن شجرة واحدة ، هي ثقافة مصر
المختلفة ، لأنها تحمل إليهم ألوان العلم وضروب المعرفة وصنوف

اللذة الفنية على تنوعها .

وقد رأى ، على ضوء حلمه الرائع الجميل - رأى مصر وقد بذلت ما دعاها إلى بذله من جهد في تعهد ثقافتها بالعناية الخاصة والرعاية الصادقة - أن الجهل قد انجاب عنها وأظلمها العلم والمعرفة وشملت الثقافة أهلها جميعاً ، فأخذ بحظه منها الغنى والفقير والقوى والضعيف والنابه والحامل والناشي ومن تقدمت به السن ، وتغلغت لذتها حتى بلغت أعماق النفوس ، وانتشر نورها حتى أضاء القصور والدور والأكوخ ، وشاعت في مصر كلها حياة جديدة وانبعث في مصر كلها نشاط جديد ، وأصبحت مصر جنة الله في أرضه يسكنها قوم سعداء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالسعادة وإنما يشركون غيرهم فيها ، وأصبحت مصر كنانة الله في أرضه حقاً يعتز بها قوم أعزاء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالعزة وإنما يفيضون على غيرهم منها .

ولم يدر الدكتور طه جين كتب كتابه هذا أن القدر كان يمكر به هذا المكر الجميل ، وقد دفعه أن يرسم تلك الخطط الخريئة ليطالبه ، بعد عشر سنوات ، بتنفيذ ما أملت تلك النفس العلوية التي هامت بحب مصر وأهل مصر .

وها هو ذا الآن ، بعد أن تسلم مقدرات التعليم وأصبح وزيراً للمعازف ، يعمل عمل الجبابة لتحقيق حلمه الرائع الجميل ...

ولكن أتواتيه الظروف للعمل وفق هواه ؟ أم تقف القيود الكثيرة سداً منيعاً دون تحقيق برنامجه الضخم ؟ هذا ما لا يدخل في نطاق كلامنا ، وإن كان قد استطاع أن يعمل في عام ما لم يستطع أن يعمل به غيره في ربع قرن . . . وكانت مجانية التعليم أولى خطوات برنامجه الثقافي الواسع الذى يهدف إلى إنشاء المدرسة الأولية في كل قرية ، والمدرسة الثانوية في كل مدينة ، والمدارس الفنية على اختلافها في كل إقليم ، ولا أتحدث عن تعزيزه الحياة الجامعية فقد كان وما زال الدعامه الكبرى التى تسند الحياة الجامعية وتعززها وترفع من شأنها لا في مصر بل في أقطار الشرق العربى كلها .

* * *

لقد انتشرت في كتابه الكثير من الآراء التى تمسّ النواحي الثقافية وأسس التعليم مباشرة ، فلا نعرض لها ، ولكن هناك آراء طريفة لا ضير علينا أن نمرّ بها مروراً سريعاً لأنها تعبر عن نزعاته التجديدية في حياة مصر المتطورة ، فمصر ، ذات التاريخ الثقافى القديم ، يجب ، في عقيدة طه حسين ، أن لا تبقي في معزل عن هذا التطور الذى يهزّ العالم بل يجب أن تندفع مع التيار التقدمى لتحفظ هذا التوازن بين ماضيها وحاضرها . فستقبل الثقافة في مصر مرتبط بماضيها البعيد ، والعقل المصرى

مرتبطة منذ القديم بشعوب بحر الروم ، وقد خالط الفكر اليونانى القديم تمام المخالطة فتأثر به وأثر فيه ، ويذهب إلى أن مصر غير شرقية ، فتبدو نظريته غريبة ، ولكن لا يكاد يجردها من شرقيتها حتى يعود ليؤكد مصريتها . . . فصر ، فى نظره ، بعيدة كل البعد عن الهند والصين واليابان ، وهى قريبة كل القرب من اليونان والاطليان والفرنسيين . ويثبت بكثير من الحجج والبراهين أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد ، وإنما نشأ مصرياً برغم ما مر به من فتوحات وحضارات ، وينتهى إلى موقف مصر الثقافى فى الماضى وحمايتها العقل الإنسانى فى عهد اليونان ، وحمايتها له بعد غارة الترك ، ثم يؤكد أن لا فرق بين المصرى والأوروبى فى العقلية ، وفى هذه المثل العليا التى يتجه إليها الغرب . وبهذا يرد مباشرة على الذين يقولون إن « العقلية المصرية » عقلية إفريقية ، وإن خصائصها دون خصائص « الذهنية الأوروبية » بكثير ! . . .

هذا ، ولا يفوت طه حسين أن يهزأ ويسخر بالعقلية الرجعية التى تحاول عبثاً أن تتبعد عن أوربا وعلمها وفنها فيخطبها متهمكماً بقوله :

« فلو قال قائل : إنا قد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا حرب الكرم والفر ، وهذه العدة التى تنحصر فى السيف والرمح والقوس والسهم

والدرقة والدرع ، فلندع للأوربيين نظامهم الحربى وما استحدثوا من ألوان السلاح وأدوات التدمير ، ولنكتف بجيوش تشبه فى عددها وعددها جيش خالد بن الوليد أو جيش بيبس . . لو قال قائل بهذا الكلام للقيمه المصريين جميعاً بالضحك والسخرية والاستهزاء . ولكن المحافظون وأنصار القديم أشد الناس التواء عليه وازوراراً عنه . . » ثم قال : « إني لأتخيل داعياً يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التى ورثوها عن آبائهم فى عصر الفراعنة أو فى عصر اليونان أو العصر الإسلامى - أنخيل هذا الداعى وأسأل نفسى : أترأه يجد من يسمع له ويسرع إلى إجابته أو يبطئ فى هذه الإجابة . . ولكنه يجب على كل حال ؟ فلا أرى إلا جواباً واحداً يتمثل أمامى بل يصدر من أعماق نفسى وهو : أن هذا الداعى إن وجد لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به ! . . »

وفى جو هذه الاستطرادات التى ترمز إلى نزعاته التجديدية ، وبعد أن وضع ذلك البرنامج الضخم لمستقبل الثقافة فى مصر حدد موقف مصر من التطور العالمى ، أو رسم خطوط هذه الثقافة التى أرادها ثقافة مصرية إنسانية ، فيها شخصية مصر القديمة الهادئة ، وفيها شخصية مصر الباقية الخالدة ، وهى فى الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغزو قلوب الناس وعقولهم وتخرجهم من الظلمة إلى النور .

بعد كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » صدر له كتاب
عن أبي العلاء المعري ..

لقد عاد إلى صنوه وصديقه ليكتب عنه من جديد . وما زال
أبو العلاء أحب شخصية أدبية إلى طه حسين الذي يجد عنده
دائماً نواحي جديدة جديدة بالدرس . هذا ما أكّده طه
حسين أكثر من مرة وفي مناسبات عديدة .. فهو يذهب إلى
أن واحداً ، مهما يكن قوياً ماهراً في البحث متقناً له ، لن
يستطيع أن يتفهم وحده أبا العلاء ويظهر الناس على دخيلة
نفسه وعلى وجوه مذاهبه في الأدب والفلسفة وغيرها من
فروعه المختلفة للعقل والشعور .. ليس ذلك بالشيء اليسير
لرجل واحد ... بل لابد في رأى عميد الأدب من أن يتعاون
عليه رجال مختلفون كلهم قوى في مادة من مواد العلم .
وكلهم ماهر في منهج من مناهج البحث . أى يجب أن يفرغ
الأدباء المجددون لأدب أبي العلاء ويجب أن يفرغ الفلاسفة
المتقنون لفلسفة أبي العلاء ويجب أن يتقسم الأدباء فيما بينهم
أدب أبي العلاء فيفرغ قوم لشعره العادى وآخرون لشعره

الفلسفى ، ويفرغ قوم لنثره العادى وآخرون لنثره الفلسفى ،
 ويجب أن يتقسم الفلاسفة فلسفة أبى العلاء فيفرغ قوم لفلسفته
 الدينية ، وآخرون لفلسفته النفسية والخلقية والاجتماعية وآخرون
 لفلسفته الطبيعية وهلم جرا ... ثم يجب أن يفرغ علماء النحو
 واللغة لعلم أبى العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما ، وعلى هذه
 القاعدة يستطيع كل هؤلاء الباحثين أن يخلصوا من درس
 أبى العلاء إلى نتائج - إن لم تكن مقنعة مزيلة للشك فهى
 مرضية مشجعة على الأمل .

هذه هى وجهة نظر طه حسين فى دراسة شخصية أبى
 العلاء وأدبه وفلسفته .

وقد فتح هو الباب - كما قدمنا - على مصراعيه بكتابه
 « ذكرى أبى العلاء » ، و « تحديد ذكرى أبى العلاء » ،
 وبهذه الدراسات الجامعية التى كتبها تلامذته على ضوء
 توجيهه ، وهى دراسات نفيسة ... ولم يكتف هو بما كتبه
 وبما وجه إليه تلامذته بل أطرفنا بكتاب ثالث عنوانه « مع
 أبى العلاء فى سجنه » ، وهو كتاب يتناول نواحي نفسية دقيقة
 من حياة أبى العلاء . كتب هذا الكتاب فى إحدى سفراته
 إلى باريس ، وهو تأملات فى تلك الحياة المنكشة التى
 عاشها الشاعر الفيلسوف . . وليس كطه حسين أديب يستطيع

أن يتحسس تلك الحياة وينفذ إلى أغوارها . وقد أضاء لنا ما أنتجته تلك الحياة من أدب وفلسفة .

فتشاورم المعرى ، عند طه حسين ، مصدره العجز عن تذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم ولذة ، وفي أكثر من فصل واحد يعرض طه حسين إلى معنى التشاؤم والتفاؤل في رسم صوراً من نفسيته ونفسية أبي العلاء — نفسية طه حسين المتفائلة ونفسية أبي العلاء المتشائمة . ثم يصور لنا هذه الفروق بين المكفوفين والمبصرين في تلمس جمال الحياة ومباهج الطبيعة ولا أريد أن أُلخص هذه الفصول التي لا تلخص بل ألمح إلماعاً ولا سيما إلى تلك الصفحات المشرقة التي أملاها عن فلسفة أبي العلاء القائمة التي كتبها في سجنه — هذا السجن الذي ارتضاه لنفسه فلبث فيه خمسين عاماً ينثر آراءه في مصير النفس ومتاعب الحياة . في السعادة والشقاء . في اللذة والألم . في الموت والبعث . في الشك واليقين . في الديانات والنبوات . في الإيمان بالعقل الذي قاده إلى شتى المعضلات الفلسفية التي زادته حيرة وشكاً ولم تهده إلى نتيجة يطمئن إليها ضميره .

لقد بدا طه حسين في كتابه هذا ناقدًا فيلسوفًا أكثر

منه أدبياً مؤرخاً . وإذ يعرض إلى نواحي فلسفته التشاؤمية بأسلوبه الرائع الذي يبسط مشكلات تلك الفلسفة المعقدة يثير في نفس القارئ أسئلة خطيرة عن نواح مختلفة من أدبه وفلسفته :

هل أراد المعري في « الفصول والغايات » معارضة القرآن ؟ ما وجه التشابه بين « اللزوميات » و « الفصول والغايات » ؟ ما رأى المعري في البعث ؟ أين تلتقي وأين تختلف آراء المعري مع آراء الأبيقوريين ؟ لماذا أثر أبو العلاء الرمز واصطنع الألغاز في أدبه ؟ ما هي الناحية الإنسانية في شخصية أبي العلاء ؟ كيف بدأت حياته الفلسفية ؟

يحيينا الدكتور طه عن هذه الأسئلة بفصول بارعة ، على ضوء من شتى المذاهب الفلسفية وشتى المذاهب الأدبية ليصل إلى الحقائق الناصعة التي تكشف لنا الكثير مما غمض من حياة أبي العلاء ..

* * *

ومادمننا في صدد كتاب الدكتور طه عن أبي العلاء فيجب أن نشير إلى كتيب صدر له في سلسلة « اقرأ » عنوانه « صوت أبي العلاء » ، وقد نشر بعض قصائد أبي العلاء بأسلوبه الشعري الأخاذ فهذه للكثيرين الذين يصعب عليهم فهم

الزوميات فهماً صحيحاً أن يدركوا غايات الفيلسوف الشاعر
ومراميه ، وهذه الصور المنشورة التي تعرض الحقيقة الكون
وفلسفة الحياة كثيرة الشبه برباعيات الخيام مع مراعاة
الاختلاف بين مزاجي الشعارين !



وتتابع إنتاج الدكتور طه ، وتتابع كتبه . وبعض هذه الكتب فصول كانت قد نشرت في الصحف والمجلات كما قلت ، وبعضها مما ألفه . وكان محصوله من القصص غير قليل فصدر له كتاب « لحظات » و « صوت باريس » وكل كتاب في جزأين ، ويضمان هذه القصص التي نلخصت من عيون الأدب الفرنسي المعاصر — عن پول جيرالدى ، وشارل مبرى ، وألفريد كايو ، وهنريك بيك وغيرهم من الكتاب المعاصرين الذين غدوا المسرح الفرنسي والأدب الفرنسي برواياتهم التمثيلية وقصصهم الطريفة التي تصور حياة فرنسا في مختلف مظاهرها تصويراً صادقاً تمازجه هذه السخرية التي امتاز بها الأدب الفرنسي بل تمازجه هذه « الواقعية » التي تمثل على المسرح ما يجري في محيط العائلة وفي صميم المجتمع . وطريقة الدكتور في تلخيص القصص الفرنسية سبق أن أشرنا إليها فلا نعود إليها . فهو يعرض إلى فن الكاتب ومرماه الفلسفي واتجاهه الاجتماعي وروح البيئة وآراء النقاد فيه حتى إذا أدناك من القصة ومن الكاتب عمداً إلى إبراز فصولها في إيجاز ، غير مخل ،

فلا يضيع على القارئ إلا هذه الاستطرادات التي يتوسع بها الكاتب في وصفه مما لا طائل تحته . والكتابان بمجموع قصصهما يضمنان نماذج طريفة من الروح الباريسية والحياة الباريسية بشتى صورها . وهي لون جميل من الأدب الفرنسى المعاصر .

هذا ، وقد أصدر الدكتور طه ، في هذه الفترة ، روايتين مصريتين كان لهما أثرهما فى الأوساط الأدبية وهما « شجرة البؤس » و « دعاء الكروان » . وقد برهن الدكتور طه ، فى هاتين القصتين ، على أنه قصصى من الطراز الأول ، حرص أن يصور هذه الصور البارزة من ملامح المجتمع المصرى ، وبالأخص الطبقات الفقيرة التى تعيش فى جو مظلم من البؤس والظنك والشقاء التى تحرص كل الحرص على عاداتها وأخلاقها وشرفها وعرض نسائها . و « دعاء الكروان » من القصص الإنسانية التى كتبت بأسلوب نفسانى عميق ، فقد وصف الدكتور طه فى هذه القصة بشاعة الجريمة ولذة الانتقام . ضعف الرجل وقوة المرأة . العدل الإلهى والظلم الإنسانى . نزوات البشر وأحكام القدر . مناعة الخلق فى الريف وميوعة فى المدن ، وبلغ الغاية فى تصوير هذه المأساة الإنسانية بأسلوب عاطفى يهز

الأفئدة ويستند الدموع من المآقي .

وكتابه « المعذبون في الأرض » تصوير دقيق لهذه الأسر الكادحة التي تلاقي ألوان الشقاء وأصناف البؤس حتى اتهم الدكتور طه بميله إلى اليسارية بعد صدور كتابه هذا الذي ضاق به جو مضر فشربه في لبنان وأهداه إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ويؤرقهم الخوف من العدل ، وإلى الذين يجدون ما لا ينفقون ولا يجدون ما ينفقون .

لقد كان طه حسين في هذه الفترة في ثورة نفسية هائجة ، وكان هو أحد المعذبين ، لقد تأمرت عليه الدولة ، وتنكّرت له حتى أخلص أصدقائه ، فاعتصم في صومعته — في بيته ومكتبته — يملئ من ذلك العالم الفسيح آراءه الفلسفية الحرة في الحياة والمجتمع وفي طباع الناس وأخلاق البشر . وقد كان من وراء ذلك كتابه « جنة الشوك » . وهو لون جديد من ألوان الأدب لم يطرقه الأدباء المعاصرون ، يرمى إلى تصوير فترات عصر الانتقال التي تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأي واختلاط الأمر وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مناهج الحياة مما يدفع المصلحين إلى النقد والعناية بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج والدلالة على الخير ليقصد إليه ، وعلى الشر لتنتكس سبيله . ويخيّل لمن يقرأ بعض آيات هذا الكتاب أن طه حسين قد سلك

مسلك صديقه أبى العلاء فى تصوير طباع الناس الذين أحسن إليهم فأساؤا إليه ، وصارحهم بما ينطوى عليه قلبه من حب ، فختالوه وخذلوه وتأمروا عليه - وهو كالطود ينظر إلى ختلهم ومؤامراتهم وكذبهم ونفاقهم بالهزء والسخرية - لا يعتمد إلا على نفسه وعلى سجيته وهذا القلم الذى يخفف من ألمه كإنسان ، ومن ألم الإنسانية التى يحس إحساسها ويشعر شعورها .

وما زال فى الطريق الوعة الشائكة ، إلى أن انجلت عنه تلك الظلمات وأخذ مكانه من القمة ، فلم ينتقم حيث كان يستطيع الانتقام ، ولم يمس أحداً من أصدقائه بأذى ، بل عطف عليهم ، وأدناهم منه ، وكأنه أراد أن يعطيهم درساً فى الأخلاق . وهذه القطعة التى نقبسها من كتاب «جنة الشوك» تمثل لنا نفسيته الجميلة أصدق تمثيل :

« قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ :

إنى أقرأ فى بعض ما يقول نيتشه : أن كثيراً من الناس لا ينبغى أن تصافحهم بيد رقيقة ، وإنما تبسط إليهم يداً كبرثن الأسد ، وأريد أن تكون فيها مخالب حادة .. فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

هم أكثر الذين تلقاهم مصباحاً ومسيّاً ، فيلاحظونك بعيون

ملؤها الود ، ويبسمون لك من ثغور مشرقة رقيقة ومن ورائها
الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون التودد إليك والتلطف لك
ولا سيما حين تحدث الأحداث وتعلم الخطوب .

ولكن نيتشه يا بني صاحب قسوة وسطوة وعنف ، فاقراً
إن شئت قول "الله عز وجل : " وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ " . »

وكم كان طه حسين قوى العزم حين صبر بإباء وشمم على
غدر أصدقائه الذين كادوا له فغفر لهم عقوفهم ولم يمس واحداً
منهم بأذى .

عرف الدكتور طه ، إلى دراسته الأدبية الممتعة وإنتاجه الفني الرائع ، وإلى ما أنشأه من كتب في شتى فنون الأدب — عرف كإمام من أئمة النقد . وقد حمل معوله يهدم هذه التقاليد البالية ولا سيما حين ثارت الخصومة بين القدماء والمحدثين ، فكانت صيحاته التجديدية ثورة لاهبة على الرجعية . . وكان لا يهدم إلا وقد رسم خطط البناء الجيل الصاعد . . وهكذا ، فقد استطاع هذا الأديب المجدد أن يخلق ثورة في حياتنا العقلية ، وأن يسير بالامة هذا السير الحثيث الذي يدينها من الأمم الحية اليقظة التي تنشد الكمال في كل شيء . . لقد اصطنع النقد لا للهدم فحسب بل للبناء — اصطنعه كأداة لبعث الحيوية . . . وقد تناول بالنقد في عدة مناسبات الحياة الأدبية التي خلت ، وكانت له جولات وصولات مع أئمة الأدب القديم وشيوخ الرجعية ؛ مع المجددين وكبار الشعراء ، ثم صرفته شؤون الجامعة والإنتاج الأدبي الخالص وشتى صروف الحياة عن المصاولة . . وشعر أن الحياة الأدبية تغط في نوم عميق . أو أن أديبنا وشعرانا ينتجون وهم نيام ؛ وقد أمنوا النقد أو استياسوا منه ، لذلك نراهم

ينتجون في فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ،
لأنهم اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضا
أو يبين عن السخط . والقراء يقرءون وهم نائمون ، قد تعودوا أن
ينفقوا الوقت بين حين وحين في قراءة هذا الكتاب أو ذاك ، لهذا
الأديب أو ذاك ؛ لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة
عنيفة ، حول رأى من الآراء ، أو مذهب من مذاهب الإنشاء
وإنما دعيتهم العادة إلى القراءة .

هذا النوم العميق هو الذي حفزه أن يوقظ النوام ؛ وأن
يبعث الحياة الأدبية من رقدتها ، فعرض إلى غير واحد من
الأدباء والشعراء — عرض إلى كتبهم فنقد أدبهم وشعرهم ،
داعبهم ومازحهم ، سخر وهزأ . وأظهر مواطن الضعف والقوة في
أدبهم وطباعهم ، وقد حاول أن يكون في نقده قاسياً ولكنه
لم يكد يعرض إلى كتب أصدقائه حتى كانت مقالاته رسائل
في الحب والعطف والمداعبة والإلماع إلى بعض الهفوات أكثر منها
هذا النقد الصارم القاسي الذي ارتقبه الأدباء والقراء من عميد
الأدب ولا سيما أنه قد وعد أن يقبل على الأدباء لا مسالماً
ولا موادعاً بل مخاصماً وملحاً في الخصام . فجاءت خصومته
أو نقده ثورة من رهاقة الحس وبقايات من أضاميم الزهر التي
كشفت عن المحاسن وأغضت بعض الإغضاء عن المساوئ . . .

ولم يكمل ما بدأ به واقتصرت هذه المقالات على نقده لكتاب
 « فيض الخاطر » لأحمد أمين و « رجعة أبي العلاء » للعقاد
 و « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم ، إلى مناقشة هادئة لآراء
 المازنى فى الأدب ، وعرض لكتب وقصص بالفرنسية دبجتها يراعة
 بعض المصريين والمتمصرات ، وهذا ما اشتمل عليه كتابه
 « فصول فى الأدب والنقد » . . ضم إليها دراسات عن أندريه
 جيد وحول رومان وبول فاليرى .

وقد كان القراء يرقبون من عميد الأدب العربى أن يستمر فى
 كتابة هذه الفصول ، وأن يعرض لنقد عشرات الكتب —
 كتب الناشئين الموهوبين والشيوخ الذين آذنت شمس شهرتهم
 بالغروب — ولكنه اكتفى بهذه الفصول ، أو أن ظروف
 الحياة — وما أقساها — قد صرفته عن متابعة هذه الرسائل ،
 وهى على قلتها تعد من المراجع الحسنة للون من مصاولات
 النقد فى الأدب المصرى المعاصر .

لا يشكو الدكتور طه حسين شيئاً بقدر ما يشكو من مواضع الحياة في مصر ، ومن استفاضة شهرته كثرت أعباؤه وكثرت مضايقات الناس له ، فهو يشكو ثقل أولئك الذين يزعجونه كل يوم بمناسبة وبغير مناسبة ، وينفر سمعه من صوت التليفون الذي لا تهدأ صلاصلته منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس ! . . ثم من هذه الزيارات المفاجئة التي تصب عليه صبا بغير حساب وفي غير تقدير وعلى غير إيدان بها وانتظار لها حتى سلبته راحته وسلبته هذه اللحظات القصار يخلو بها إلى نفسه ويهدأ من أعباء الحياة . . وحتى أصبح ولم يعد ملكاً لنفسه ولا ملكاً لأهله ولا لعمله بل هو ملك لأولئك المحبين الذين أزعجوه وأرهقوه وسلبوه راحته ! . . وتمتد هذه المضايقات إلى مخبري الصحف الذين يريدون رأيه في الأحداث التي تواجه مصر ، وإلى أصحاب الصحف والمجلات الذين يطلبون إليه باستمرار أن يكتب في كل موضوع ، حتى في المواضيع التي لا صلة له بها ، يطلبون إليه أن يكتب في شؤون العلم مثلاً . . فإذا اعتذر لأصحاب العلم بأنه صاحب

أدب لم يقبلوا وألحفوا بالطلب وتوسلوا ليزيدوه إرهاباً وإزعاجاً
وإلى هذا أشار في إحدى رسائله :

« والناس لا يعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل
أو الحديث أو المقدمة رفقا ولا ليناً ولا مباشرة . . وأكاد
أملى ولا حياء . . فهم يطلبون ويطلبون ، ويلحون ويلحون
فإذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب ،
وتشفعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته رداً حتى يبغضوا إليك
الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ويوشكوا أن يزهدوك في
الحياة ! » .

وهذا الذي كان يدفعه إلى الحرب من مصر إلى أوروبا
حين يقبل فصل الصيف ، يخلو في مرتفعات فرنسا إلى نفسه ،
وينسى ثقل هذه المضايقات . . أى كان يقسر نفسه على
استعمال إجازته السنوية ليرتاح . . ولكن هل كانت تتوفر له
الراحة والاستجمام ؟

لقد رأينا في الفصول السابقة أنه ما سافر في إجازة إلا رجع
بكتاب جديد . وأكثر الكتب التي ألفها هي وحى رحلاته . .
فقد كتب أكثر من كتاب في ذرى الألب وفي جبال لبنان . .
فالإجازة عنده هي الخروج من حياة إلى حياة والتخفف
من أثقال لاحتال أثقال أخرى ، والاستعفاء من بعض

الواجبات للالتزام واجبات أخرى ، وقد أشار إلى هذه الناحية بقوله :

« . . ونحن إذن لانغنى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . . ونحن لانخرج من عمل إلا لندخل في عمل آخر . . وإني لأشهد ، لقد بدأت أجازقي هذا العام - ١٩٤٧ - كما بدأتها فيما مضى من الأعوام فلم أشعر إلا بأنني انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن التزام إلى التزام » .

وهكذا ، وبالرغم من هذه الأثقال والمضايقات فإن إنتاجه الأدبي لم ينقطع . . . وقد ظل ، ولا يزال ، على صلة وثيقة بقرائه في كافة الأقطار العربية ، ينتقل بهم من أفق إلى أفق ، من اليونان القديمة إلى مصر الحديثة ، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، وله في كل حقبة من هذه الحقب وقفات طويلة يتحدث فيها عن شتى أنماط الفكر وتيارات الأدب ، فيطيل الحديث ويرسل أضواءه المشعة على تلك الظلمات فينير جوانبها . . وما من ناحية من نواحي التاريخ أو ظاهرة من ظواهر الأدب التي عرض لها إلا وفها بحثاً ودرساً وخرج بآراء طريفة واتجاهات جديدة . . وآخر ما قدمه للقارئ العربي ، بعد أن ترجم له طرائف من

قولتير وأندريه جيد ، كتابه القيم « الفتنة الكبرى أو تاريخ عثمان ابن عفان » ويعرف القراء أن الفن بين أحزاب المسلمين قد وقعت منذ ولي الخلافة سيدنا عثمان . . وقد انشطرت الآراء حوله : تحزب قوم له ، وتحزب أناس ضده ، واستمر الخلاف آماداً طويلة . ولا يزال في بعض البيئات الإسلامية إلى يومنا هذا . . وقد أحب طه حسين أن يدرس هذه الناحية بروح المؤلف المنصف الذي برئ قلبه من كل مؤثر . . . فكانت نظريته إلى الأحداث نظرة خالصة مجردة ، لاتصدر عن عاطفة ولاهوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين . . وإنما هي نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريداً كاملاً من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها — بهذه النظرة درس التيارات العاصفة التى أثارت رياح هذه الفتنة ، وقد عرض فى بحثه إلى بدء تكون الإسلام وانتشار رسالته . وإلى الشخصيات الفذة التى لعبت دورها فى تلك الفترة العصبية . . وإلى الآراء والاتجاهات والمطامع . ثم عرض إلى عوامل الخلاف والنزعات الاقتصادية وهذا الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، فكان مؤرخاً من الطراز الأول ، وكانت نظريته التاريخية وتفسيره للأحداث تختلفان كل الاختلاف عن نظرة من سبقه من المؤرخين الذين عرضوا

لأحداث التاريخ الإسلامى . . وقد أخذ الكثيرون يتساءلون
 بعد تلاوة هذا الكتاب لماذا لا ينصرف طه حسين إلى تدوين
 التاريخ الإسلامى بهذه الروح الكبيرة البعيدة عن الأهواء
 والتزغات — "بهذه الفزعة الفلسفية الواسعة الآفاق التى تنظر
 إلى أحداث التاريخ نظرة موضوعية كما تؤرخ الأحداث العالمية
 الكبرى . ونرجو أن يواتيه الزمن لتحقيق هذه الرغبات ، ونرجو
 أن يكون قد استطاع إنجاز الجزء الثانى من هذا الكتاب فى
 الإجازة التى استعملها هذا العام .

في أواخر عام ١٩٤٨ عقد في بيروت المؤتمر الثالث للأونسكو ، وقد حضره ما يقرب من خمسمائة مفكر من أبرز مفكرى العالم يمثلون أربعاً وأربعين دولة ، بينهم الوزير الخطير ، والجامعى الكبير ، والمؤلف الشهير ، وأصحاب النظريات فى العلم والأدب عدا عشرات الأساتذة والصحفيين ، وقد شاهد الشرق والغرب فى لبنان مهرجاناً عظيماً من مهرجانات الفكر ، ونظمت هيئة الأونسكو ، بالاشتراك مع الحكومة اللبنانية سلسلة من المحاضرات العامة التى يلقيها بهذه المناسبة أكابر مفكرى العالم كان بينهم المسيو بيدورئيس وزراء فرنسا سابقاً والمستر هكسلى الأديب العالمى ، وبوده ، وطه حسين ، وغيرهم من أعلام الفكر فى الشرق والغرب ، وكانت محاضرة طه حسين عن « أثر الحضارة العربية فى الحضارة الغربية » فوقف قرابة الساعتين يتكلم بفرنسية عالية مما أثار دهشة وإعجاب مندوبى أمم العالم وقد خرجوا جميعهم وهم مؤمنون بعبقريّة هذا الرجل وأن الشرق سيعود إلى سابق مكانته مادام أفراد أمثال طه حسين .



كانت مصر ، أو كانت الهيئات الرسمية في مصر ، قد تمكّرت لهذا الرجل في الفترة التي كانت شهرته فيها قد استفاضة في البيئات الفكرية في الغرب ، برغم مكانته في العالم العربي ، وكان خلال هذه الفترة يطوف أوروبا ، وقد بدأت جامعات الغرب تستدعيه ليحاضر طلابها ، وقد لقي أكبر حظوة وأجل تكريم حتى كاد ينوي الإقامة في الغرب تحديداً لعقود بعض الهيئات الرسمية التي أخذت تضايقه حتى في رزقه ! . . ولكن هذه الظلمات ما لبثت أن انجابت حين تسلم الوفد الحكم في أواخر سنة ١٩٤٩ . فلم يكد رفعة مصطفى النحاس باشا يؤلف وزارته حتى اختار الدكتور طه وزيراً للمعارف ، فكان لهذا الاختيار أثره العظيم لدى جميع المفكرين الأحرار ، ورجالات الأدب الذين يذكرون لهذا الإنسان العظيم جهوده الفذة في سبيل حرية الفكر وفي سبيل تطور العقلية العربية وتسلم عمله الرسمي دون ضجيج . . وهكذا فقد عاد المعلم الحكيم إلى البيئة التي نشأ في أجوائها ليتابع رسالته وقد استطاع في فترة قصيرة أن يحدث تغييراً بليغاً في الأسس والمناهج ، وأن يرسم خططاً جديدة لانقلاب خطير في العقلية المصرية ، وقد سار في طريقه محطماً القيود والسدود ، مقتلعاً من طريقه

الأعشاب والأشواك لتحقيق رسالته ، ورسالته التعليمية تهدف قبل كل شيء إلى تحقيق الحرية لأبناء وطنه ، فهو يصرخ من الأعماق هذه الصرخة المدوية في آذان الذين يلتمسون لوطنهم الحرية فيقول لهم : يجب عليكم ، قبل كل شيء ، أن تنقلوه من الجهل ، وأن تعلموه واجبه أولاً ، وحقه بعد ذلك . ثم يصرخ في آذان أولئك الذين يلتمسون المجد لوطنهم فيقول لهم : عليكم أن تفتحوا لأبنائه طريق المجد ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم . ثم يختم هذه الصيحة فيخاطب أولئك الذين يلتمسون لوطنهم الكرامة ويأبون أن يكون وطنهم مستذلاً لوطن آخر ، ويظالبون بأن تعرف الدنيا مجده القديم وعزته الحاضرة ، في مستقبل سعيد يلائم ماضيه وحاضره — يخاطب كل هؤلاء بقوله : عليكم أن تمكنوا هذا الوطن من تحقيق هذه الآمال التعليمية واستنقاذه من الجهل ، فلا مجد والجهل مخيم ، ولا حرية والجهل مستأثر بالقلوب .

ولا يزال الدكتور طه ، إلى كتابة هذه السطور ، يعمل في الوزارة بصمت ، وقد أثارت أعماله الخطيرة إعجاب أحد خصوم حزبه السياسيين — والسياسة الحزبية في الشرق تقلب النور ظلاماً ، والخير شرّاً ، والهدى ضلالاً ، فرأيناه — وهو وزير سابق — يشيد بعمل زميله

الجبار في وزارة المعارف ويطلب بروح طيبة « تأميم » أوقات هذا الرجل للإفادة من مواهبه الفذة . .

وقد كانت سنة ١٩٥٠ هي السنة التي احتفل فيها بعيد الجامعة القضي . . . والدكتور طه أول ثمرة من ثمراتها ، وقد أصبح بعد هذه السنوات الخمس والعشرين وبعد أن أصبح وزيراً للمعارف - أصبح الأب الروحي لهذه الغرسة الطيبة ، وقد أقيمت حفلات فخمة لهذه المناسبة العلمية دعى إليها أكابر المفكرين وأكثر جامعات العالم ، وكان الاحتفال مهرجاناً كبيراً للعلم والمعرفة مما دعا جلالة الفاروق أن يزهو ويهتز كل الاعتزاز بأحد أفراد رعيته الذي أجمعت البيئات العلمية كلها على تقديره والإشادة بمواهبه ، فمنحه رتبة « الباشوية » بكثير من التقدير ، وكانت هذه الرعاية أبلغ تقدير للعلم في شخص طه حسين . . .

وكانت الدعوات قد أخذت تنهال على « مارتن لوتر » مصر كما تسميه الدوائر العلمية في الجامعات البريطانية ، « ورينان » مصر الضريح كما تلقبه الصحافة الفرنسية - كانت الدعوات تنهال عليه من الجامعات الكبرى لتمنحه الدكتوراه الفخرية تقديرًا لأدبه وعلمه - من ليون ومونبليه ومديره وروما وأكسفورد وأثينا - فلبس طلبها واحتفت به حفاوة

بالغة . . وألقى عدة محاضرات كان لها وقعها العظيم في
الأندية العالمية . . وكان في أجوبته على كلمات الخطباء
الذين أشادوا بعظمته كأديب عالمي وجامعي حرّ ، أن هذا
التقدير — والتواضع بعض سجاياء — أن هذا التقدير ليس
لشخصه بل لمصر . وهذا منتهى الإفراط في الوطنية النبيلة
التي عمر بها قلب طه حسين .

إنه اليوم في القمة .

وما فتئ هذا المفكر الحر الذي يعمل لمصر وللشرق
باندفاع وإخلاص .

* * *

إن مجال الكلام عن طه حسين واسع جداً . فكل
ناحية من نواحي حياته تستغرق كتاباً مستقلاً . وما أردنا من
هذا الكتيب إلا أن نسجل لمحات من نواحي هذه الحياة
الوثيقة الصلة بحياتنا الفكرية . فقد كان رمزاً لثورة التحرير
الفكري ، وقرن اسمه بالكثير من الأحداث الأدبية ، وقاد
الحركات الفكرية بكثير من الجرأة والإخلاص والذكاء . .

وبالرغم من أعبائه الكبرى فلا يزال المفكرون ، والأدباء
بصورة خاصة ، يرقبون منه أن يقوم بأعمال أدبية ضخمة .
وما أتمناه شخصياً أن تتاح له الظروف المواتية لتدوين

« تاريخ الأدب العربي في كافة عصوره » بالترعة التحريرية
 التي عرف بها وبالاتفاق الذي وضع أسسه . . فبالرغم من
 الكتب الكثيرة التي صدرت عن تاريخنا الأدبي لا يزال هذا
 التاريخ الضخم غير مكتوب ، وما كتب عنه قد كتب
 بروح متزمتة وتفكير ضيق وأسلوب رجعي سقيم .. ولن
 يستطيع أحد أن يملأ هذا الفراغ غير عميد الأدب ، وهذه
 أمنية غالية تنطوي عليها صدور الآلاف من قرائه في الشرق
 والغرب .

فهل يحقق معالي الوزير الأديب هذه الأمنية الغالية ؟ !
 هذا ما نأمله وما نرجوه . .

حاب : ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥١

للمؤلف

نظرات في الأدب والاجتماع

شهر في أوربا

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

الفكر العربي بين ماضيه وحاضره

المرأة هذا اللغز الأبدى

أبو العلاء المعري : دفاع ابن العديم عنه

الراجلون

أنواء وأضواء

من أضواء الماضي « سلسلة اقرأ »

17. 4. 80

Pages Missing
63-66

A.U.B. LIBRARY

892.78:H968YKA:c.1

الكيالى، سامى

مع طه حسين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01041615

American University of Beirut



B

~~H968A~~

General Library

892.78

Ha3924Yka

1952.C.1